بحثٌ حول المهدى (عج)

تأليفُ

الإمام الشّهيد السيّد محمّد باقر الصّدر قدس سره

تحقيق وتعليق

الدّكتور عبد الجبّار شرارة

مع مقدّمةٍ وافية

مركز الغدير للدراسات الإسلامية | قم

ص:٥

بسم الله الرحمن الرحيم

ص:۶

ص:۷

کلمة المرکز

ص:۸

ص:۹

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله الطاهرين .

إن من المهام الفكرية والعلمية التى تصدى مركز الغدير للعناية بها ونشر الأبحاث والدراسات الدائرة حولها والمهتمة بالتعريف بها هى الأبحاث والدراسات العقيدية المرتبطة بعقيدة الإمامة ، ولعل دراسة قضية الإمام المهدى عليه السلام وبحثها بحثاً علمياً استدلالياً والتعريف بها ، ومناقشة الشبهات المثارة حولها ، هى من أهم المباحث وأكثرها حاجة إلى الإيضاح والتعريف .

ولقد كتب العلماء والمفكرون والباحثون والمحققون الكتب والدراسات لدراسة هذا الموضوع الخطير .

كما خرّج علماء الحديث وأصحاب الموسوعات الحديثية أحاديث المهدى المروية عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى كتبهم وأفردوا لها باباً خاصاً حيناً ، كما وردت ضمن أحاديث وروايات أخرى حيناً آخر .

ومن الذين تناولوا هذه البحث بالدراسات والتحليل ، وضمن منهج متميز هو الفقيه والمفكر الإسلامى الشهيد السيد محمد باقر الصدر رضى الله عنه ، فقد بحث هذا الموضوع تحت عنوان «بحث حول المهدى» فكان بحثاً عقلياً وتنظيرياً لعقيدة

ص:۱۰

المهدى . ولم يورد فيه مؤلّفه الروايات الدالة على الموضوع ؛ ذلک لأن البحث كان عبارة عن مقدمة لكتاب استدلالى موسع هو كتاب «موسوعة الإمام المهدى» للسيد محمد الصدر .

فهو عبارة إذاً عن مقدمة لكتاب ، وليس كتاباً . غير انّه جاء بحثاً استوعب مرتكزات الموضوع وأغنى جوانبه . وحق ان تبذل الجهود لتحقيقه وإخراجه ونشره . فكاتبه (الشهيد الصدر) قمة من قمم الفكر والعلم ، وحجة من حجج البحث والتحقيق .

من أجل ذلک بادر مركز الغدير بتكليف الأستاذ الدكتور عبد الجبار شرارة أن يقوم بتحقيق هذا الأثر من تراث شهيدنا الصدر العلمى والتعريف بمسئلة من أهم مسائل العقيدة من خلال هذا البحث القيم ، ولقد تركز عمل المحقق بمقدمة علمية استعرض فيها وحلل مناهج البحث فى هذه المسألة ، فلخصها يمنهجين هما :

١ ـ منهج المشككين .

٢ ـ منهج المثبتين ، الذى قسمه إلى منهجين هما :

الف ـ المنهج الروائى .

ب ـ المنهج العقلى (منهج الشهيد الصدر) .

فتحدث عن منهج الشهيد الصدر وأوضح طريقته فى إثبات القضية وبلورة معالمها ، كما قام بنقد ورد الشبهات المثارة حول عقيدة الإيمان بوجود المهدى المصلح ، وأورد الأدلة المثبتة لذلک .

وبعد تلک المقدمة انتقل المحقق إلى نص كتاب «بحث حول المهدى» فقام بتدقيق المتن وضبطه وتخريج الآيات والروايات والإحالات الواردة فى متن الكتاب والتعليق على بعض نصوص الكتاب لإيضاحها وكشف غوامضها .

ومركز الغدير إذ يتبنى إعداد هذا الكتاب بتوجيه وعناية من المشرف العام آية الله السيد محمود الهاشمى ، إنما يقدم للقراء أثراً علمياً قيّماً ، وصياغة فكرية فذة لمبدأ إسلامى خطير ، ويعرّف من خلاله بمسألة من أهم مسائل الفكر والعقيدة الإسلامية .

راجين من الله سبحانه قبول العمل وشفاعة أهل البيت عليهم السلام وتحقق آمال المستضعفين فى العالم بإقامة دولة الحق التى يرفع لواءها المصلح المنتظر .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مركز الغدير للدراسات الإسلامية

ربيع الأول ١۴١٧ للهجرة الشريفة

ص:١٢

ص:١٣

مقدمة المحقق

ص:۱۴

ص:۱۵

الاعتقاد بالإمام المهدى المنتظر عليه السلام قضية أساسية فى عقيدة المسلمين وقد شغلتهم وما تزال منذ بشّر خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم به ، وأكّد ظهوره فى آخر الزمان فى أحاديث جمّة ، وفى موارد ومناسبات لا تحصى كثرة بلغت حدّ التواتر ، فصار الاعتقاد به من ضروريات الاسلام . ومع ذلک كلّه فقد نجم فى القرون الماضية وفى قرننا الحالى من أنكر وشكّک فيه إمّا تأثراً بمناهج مادية او بسبب عصبية مذهبية أو لجهلٍ بما أودع فى الصحاح والمسانيد والسنن ومئات الروايات (۱) عن طريق الفريقين السنّة والشيعة ، ولقد ألّف العلماء المتقدمون والمتأخرون عشرات الكتب كما كُتبت فصول أو دراسات تضمنت أدلةً معتبرة واحتجاجات سليمة وقوية على وجود المهدى وصدق القضية بما لا ينبغى معه أن يرتاب فيه مسلم صحيح العقيدة يؤمن بما يخبر به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

ولقد بلغ من رسوخ هذه العقيدة فى الامّة المسلمة أن استغلّها بعض الأدعياء ، وادّعوا المهدوية ، ولكن سرعان ما انكشفوا وافتُضحوا ، كما افتُضح أدعياء النبوّة ، وقد حاول الدكتور أحمد أمين فى كتابه (المهدوية فى الاسلام) أن

---

(۱) راجع : المهدى الموعود المنتظر عند علماء أهل السنّة والإمامية | الشيخ نجم الدين العسكرى ، وفيه أكثر من أربعمئة حديث من كتب أهل السنّة .

يجعل من ادّعاء المهدوية سبباً للطعن على فكرة المهدى وأصالتها ، ولكن العكس هو الصحيح . فالادّعاء يدلّ على أنّ المدّعين يستغلّون حقيقةً موضوعيةً ، واعتقاداً راسخاً عند الناس ، ثمّ لو صحّ أنّ الادّعاء مبطل لأصل القضية ، فلازم ذلک إبطال النبوّات لكثر المدّعين بها .

والأمر المثير للعجب أن يتصدى بعض أدعياء العلم والمعرفة قديماً وحديثاً للتشكيک والتشويش على الأمة المسلمة ، لا لشيءٍ الاّ بسبب قصور فهمهم عن إدراک أسرار هذه العقيدة ، ومقاصدها السامية ، أو بسبب غرض آخر ، ومن هؤلاء فى عصرنا الحديث المستشرقون وتلامذتهم من أمثال گولدزيهر ، وفلهاوزن ، وفان فلوتن ، ومكدونالد ، وبرنارد لويس ، ومونتغمرى وات ، وماسنيون وغيرهم ممن تبعهم من تلامذتهم من أبناء الإسلام ، وسار على منهجهم فى إثارة الشبهات والتشكيک بعقائد الإسلام ومقولاته وفى القرآن الكريم والسنّة المطهرة ، ثمّ سلک هذا المسلک الوهابية ومن سار فى ركابهم من أبناء الشيعة والسنّة فى التشكيک بعقيدة المهدى المنتظر ، وليس لدى جميع هؤلاء ما يدعم إنكارهم من الأدلة والمستمسكات الموثوقة ، بل الدليل قائم على خلاف مذاهبهم والبرهان ساطع وقاطع على صحة العقيدة فى المهدى ؛ لثبوت التواتر كما حكاه غير ، ومنهم البرزنجى فى الإشاعة لأشراط الساعة ، والشوكانى فى التوضيح كما سيأتى .

والغريب أنّ هؤلاء يتوسّلون بنفس الذرائع ، ويتعلّلون بنفس التعلّلات التى توسّل بها منكرو ما جاء من أنباء الغيب التى احتواها القرآن الكريم ، أو التى نطق بها الرسول الكريم نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم كإنكارهم الإسرار والمعراج (١) .

إنّ قراءة متأنية لما أثاره المشككون من إشكالات ، وما يطرحونه هذه

---

(١) راجع : تفسير ابن كثير ٣ : ٩ وما بعدها تفسير اول سورة الإسراء .

الأيام من تشويشات ، كمافى مزاعم وادّعاءات السائح ، والقصيمى ، وغيرهم من المشوّشين ـ وهى لا تختلف عمّا طرحه الخصوم من قبلهم ـ الذين هم عن العلم بعيدون ، وبمعرفة علم الحديث ر وايةً ودرايةً أبعد ما يكونون ، وبحقائق التاريخ ووثاقته على أتمّ الجهل أو العناد ، إنّ هذه القراءة ستوقفنا على سذاجة تفكيرهم وسُقم واختلال مناهجهم فى التعامل مع هذه القضية الخطيرة (١) .

ومن هنا كان تصدى الإمام الشهيد الصدر رضى الله عنه لها بالبحث والدراسة وفق منهج علمى جديد ، يعتمد النقل الصحيح ، والدليل العقلى السليم ، ومناقشة القضية مناقشةً هادئة رصينة متعرضاً لكل الإشكالات المثارة فى المقام . والواقع أننا إزاء ما أثاره الخصوم قديماً وحديثاً لم نجد ـ فى حدود تتبعنا القاصر ـ من درسها وناقشها بمثل هذا المنهج والأسلوب الذى اتّبعه الإمام الشهيد الصدر رضى الله عنه ، كما سيتضح للقارئ العزيز .

ولعلّ من المناسب فى هذه المقدمة أن نتعرّف على جملة حقائق أو ملاحظات يمكن ان تشكل مدخلاً مناسباً لبحث السيد الشهيد رضى الله عنه الذى وفقنا والحمد لله إلى تحقيقه تحقيقاً علمياً حديثاً .

ويتضمن المدخل الإلمام بالأمور الآتية :

أولاً : منهج المشككين قديماً وحديثاً .

ثانياً : منهج المثبتين :

١ ـ المنهج الروائى .

٢ ـ المنهج العقلى (منهج الشهيد الصدر رضى الله عنه) .

---

(١) راجع مناقشة السائح وأمثاله فى (نقد الحديث بين الاجتهاد والتقليد) للسيد محمد رضا الجلالى المنشور فى مجلة تراثنا / العددان ٣٢ و ٣٣ ـ السنة الثانية ١٤١٣ هـ ـ اصدار مؤسسة آل البيت عليهم السلام .

أولاً : منهج المشككين

ينطلق المنكرون للإمام المهدى المنتظر عليه السلام من دوافع ومنطلقات لا تنسجم مع منهج الإسلام العام فى طرح العقائد والدعوة إلى الإيمان بها . فمنهج الإسلام الذى يعتمد على العقل والمنطق والفطرة ، يقوم فى جانب مهمٍ منه على ضرورة الإيمان بالغيب . وتتكرر الدعوة فى القرآن الكريم إلى ذلک ؛ إذ هناک عشرات الآيات (١) التى تتحدث عن الغيب والدعوة إلى الإيمان به ، والمدحة عليه كما فى قوله تعالى : (آلمَ ذَلِکَ الكِتَابُ لاَ رَيبَ فِيهِ هُدىً لِلمُتّقِينَ * اَلّذِينَ يُؤمِنُونَ بِالغَيبِ) البقرة : ٢ ـ ٣ ، وفى الحديث النبوى الشريف (٢) كذلک ؛ إذ هناک مئات الروايات وبصورٍ متنوعة وعديدة وكلّها تؤكّد الإيمان بالغيب وعلى أنه جزء لا يتجزأ من العقيدة ، وأنّ هذا الغيب سواء تعقّله الإنسان وأدرک جوانبه أو لم يستطع إدراک شىء منه وخفيت عليه أسراره ، فإنه مأمور بالإيمان ، غير معذورٍ بالإنكار ، بلحاظ أنّ مثل هذا الإيمان هو من لوازم الاعتقاد بالله تعالى ، وبصدق سفرائه وأنبيائه الذين يُنبئون ويُخبرون بما يُوحى اليهم ، كما هو الأمر فى الإيمان بالملائكة وبالجن وبعذاب القبر وبسؤال الملكين (منكر ونكير) وبالبرزخ (٣) وبغير ذلک من المغيّبات التى جاء بها القرآن الكريم أو نطق بها الرسول الأمين ونقلها إلينا الثقات المؤتمنون . وإذن فكلّ تشكيک بشأنها ـ أى قضية المهدى ـ إنما يتعلق بأصل التصديق بالغيب ، والكلام فيه يرجع إلى هذا الأصل .

---

(١) راجع : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة (غيب) . وراجع التفسير ومنها تفسير ابن كثير المجلّد الأول فى تفسير أوّل سورة البقرة .

(٢) راجع كتاب الفتن وعلامات الساعة فى الصحاح والمسانيد والسنن . راجع مثلاً : التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول | الشيخ منصور على ناصف ٥ : ٣٠٠ وما بعدها .

(٣) راجع : التاج الجامع للأصول ١ : ٢٥ .

ومن هنا حاول المنكرون لعقيدة المهدى عليه السلام أن يهربوا ، وينأوا بأنفسهم عن طائلة ذلک الاعتقاد ، فلجأوا إلى التشكيک بالأخبار الواردة بشأنه أو تضعيف أسانيدها كما فعل ابن خلدون فى تاريخه فى الفصل الثانى والخمسين الذى عقده فى أمر الفاطمى ، حيث ضعّف الأحاديث المروية فى المهدى مع اعترافه بظهور المهدى آخر الزمان ، وبصحة بعض الأحاديث المروية بشأنه . وتبعه عدد من المقلدين أمثال على حسين السائح أستاذ كلية الدعوة الإسلامية فى ليبيا فى بحثه (تراثنا وموازين النقد) (١) إذ تعرّض فيه لموضوع المهدى المنتظر ، وتعلق بالخيوط العنكبوتية التى نسجها ابن خلدون حول عقيدة المهدى ، وحسب أنه لجأ إلى ركن شديد ، وأنه سيرقى عليها إلى السماء ، غافلاً عن أنه تشبث بأوهن البيوت .

وعندما اصطدم هؤلاء بعد إمكانية ردّ تلک الروايات أو تضعيفها لكثرتها ، وتعدد طرقها ، وصحة أسانيد عدد كبير منها كما أثبتها أئمة الحديث (٢) ، لجأوا مرةً أخرى إلى احاطة أمر المهدى بالأساطير التى اخترعوها ، كاختراعهم أكذوبة السرداب التى لا أصل لها عند المعتقدين به ، وقد ناقشها الشيخ العلامة الأمينى مناقشة وافية أبان فيها تخبط الخصوم فى الأساطير التى نسجوها تارةً فى موقع السرداب ـ إذا اختلفوا فيه اختلافاً مضحكاً ـ وتارةً أُخرى فى مواقف الشيعة وطقوسهم المزعومة حول السرداب (٣) .

---

(١) البحث نُشر فى مجلة الدعوة الإسلامية الصادرة فى ليبيا ، وراجع مناقشته فى بحث السيد الجلالى المنشور فى مجلة تراثنا المذكور سابقاً .

(٢) راجع : دفاع عن الكافى | ثامر هاشم العميدى ١ : ٢٠٣ وما بعدها ، فقد اورد مناقشة العلماء وأئمّة الحديث لتضعيفات ابن خلدون والمقلّدين لرأى ابن خلدون ، كما ناقش هو تلک التضعيفات مناقشة علمية متينة أبان فيها تهافتهم وعدم تبصّرهم ومعرفتهم بفن الرواية وأصول الدراية .

(٣) راجع : الغدير ٣ : ٣٠٨ ـ ٣٠٩ ، وراجع ما أورده العميدى من مناقشات متينة لهذه الفرية فى دفاع عن الكافى ١ : ٥٣٩ ، راجع : سرة الائمة الاثنى عشر | هاشم معروف الحسنى ٢ : ٥٥٩ .

ولجأ آخرون إلى انكار ولادته (١) الميمونة بإقراء ذوى المطامع (٢) او الطموح السياسى والاجتماعى لتبنى هذا الإنكار والإفادة منه ، إلى غير ذلک من التعلقات الواهنة التى تسقط لدى عرضها على الحقائق الوفيرة ، فضلاً عن مقتضيات الأحاديث الصريحة الصحيحة .

وبالجملة فإنّ منهج المشككين لم يخرج عن مثل تلك المنطلقات والتوهمات أو المغالطات المنكرة ، فضلاً عن تعارضه مع الأصول المعتبرة الدينية والروائية .

ولعل من المناسب أن نورد ضمن هذا المنهج ما ذهب إليه بعض المعاصرين من أمثال إحسان إلهى ظهير (٣) والبندارى (٤) والسائح ، ومن احتذى حذوهم ، وقلّدهم تقليداً أعمى من المنسوبين إلى الشيعة .

وملخّص ما أثاروه واستندوا إليه أمور نذكرها كما وردت على ألسنتهم ، ثمّ نناقش أسس مدّعياتهم ومنهجهم ، وذلک كما يأتى :

١ ـ قالوا : إنّ الشيعة وقعوا فى حيرة واضطراب بعد وفاة الإمام العسكرى ، وخاصة فيما يتعلق بولادة الإمام المهدى (محمد بن الحسن) ؛ لوجود الغموض فيما ورد عنه من طريق الأئمة عليهم السلام عندما سُئلوا عنه .

٢ ـ قالوا : إنّ الشيعة انقسموا وتفرقوا إلى أربع عشرة فرقة فى مسالة الإمام

---

(١) راجع : دفاع عن الكافى : ١ : ٥٦٩ فقد أورد المؤلف شهادات واعترافات وإثباتات وافية عن علماء أهل السنّة من القرن الرابع الهجرى إلى القرن الرابع عشر فى إثبات ولادة المهدى واستمرار حياته ووجوده الشريف .

(٢) راجع : الإرشاد | الشيخ المفيد : ص ٣٤٥ ، وراجع أيضاً سيرة الأئمة الاثنى عشر | الحسنى ٢ : ٥٣٤ ـ ٥٣٨ فى قضية جعفر الكذّاب .

(٣) راجع الشيعة والتشيع ـ فرق وتاريخ : وص ٢٦١ و ٣٠١ | الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ ـ باكستان .

(٤) راجع التشيع بين مفهوم الائمة والمفهوم الفارسى | الطبعة الثانية ـ دار عمار ـ الأردن .

بعد وفاة الامام الحسن العسكرى ، وأن أمر الإمام المهدى لو كان واضحاً ومهماً وجزءاً من المذهب الجعفرى لما جاز الاختلاف فيه ، ولما أمكن ان يبقى امره سرّاً غامضاً .

٣ ـ زعموا أن الروايات التى تتحدث عن هوية الإمام المهدى ضعيفة وموضوعة ومختلفة ، سواء منها ما يتعلق باسم أمّه ، أم بتاريخ ولادته ، أم بما لابسَ ولادته ، أم بغيبته وسفرائه.

وقد ختم أحدهم تخرَصاته زاعماً بأنه لم يرفض إماماً ثبت وجوده من أهل البيت ، إنما حصل عنده شكّ بولادة الإمام الثانى عشر ؟ لعدم توفر الأدلة الكافية – بحسب زعمه – أو لعدم قناعته بها أى بالأدلة المذكورة ، وذكر أنه لايستبعد أن يطيل الله عمر إنسان كما أطال عمر النبى نوح عليه السلام ، بالرغم من عدم الحاجة والضرورة إلى ذلک. وأنه يبحث عن الأدلة التى تثبت أن الله تعالى قد فعل هذا بشخصٍ آخر ، لأنه لا يمكن أن يعتقد بحدوث هذا عن طريق القياس والتشبيه ، ثم قال : «وقد كان سيدنا الصادق يرفض القياس بالأُمورِ الفرعية الجزئية فكيف فى الأمور التاريخية والعقائدية» .

هذا ملخص ما أوردوه وانفتقت به عبقرياتهم وهم يحسبون أنهم جاءوا بما لم يتنبه إليه الأوائل.

وردّاً على هذه الإشكالات ، وجواباً عن هذه الإثارات ، نقول :

أولاً ـ إن وجود الغموض فى تحديد هوية الإمام المهدى ، ووقوع الحيرة لدى الشيعة ـ لو صحّ كما صوّره الخصم وضخّمه ـ هو دليل على الخصوم وليس لهم ، إذ عدم تحديد الهوية والإصرار على بقاء الأمرسراً دليلٌ على وجود الإمام والخوف عليه من الأعداء لا على عدم وجوده ، كما توهّموا.

ص:٢٢

فالأئمة عليه السلام –كما وردت الروايات (١) ـ لم يريدوا الكشف عن التفاصيل المتعلقة بحياة الإمام المهدى وولادته الميمونة ، لمعرفتهم بتكالب الأعداء فى طلبه ، وجدّهم وتربّصهم به ، وقد كانوا يبثون العيون ويترصدون كلّ حركة للعثور على الإمام والتخلص منه ، بعد أن أيقنوا بالأمر وشاهدوا ترقّب الأُمّة وتطلعها لمقدمه الشريف ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً.

وكيف لا يحرص الأئمة عليهم السلام على حياته العزيزة ، وقد فعل سلاطين الجور الأفاعيل ، وارتكبوا الحماقات والشناعات بحق أهل البيت وذرية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ طاردوهم وسجنوهم وأذاقوهم التشريد والقتل أخذاً بالظِنّة والتُهمة والوشاية المغرضة ، ودونک التاريخ فاقرأ فى (مقاتل الطالبيين) للأصفهانى العجب العجاب.

وإذن فكيف يكون الحال وقد اطلع هؤلاء السلاطين على الروايات فى صحاح المسلمين ومسانيدهم عن المهدى من العترة الطاهرة ، ومن ذرية فاطمة ومن أولاد الحسين تحديداً ، وأنه سيظهر ليملأها قسطاً وعدلاً ، فهذه المعرفة اليقينية قد خلقت شعوراً قوياً لدى الحكام الظلمة بأن عروشهم ستنهار. وكان هذا ا الهاجس هو الذى يفسّر لنا تلك الإجراءات الغريبة وغير الاعتيادية التى اتخذتها السلطة الحاكمة عند سماع نبأ وفاة الإمام الحمسن العسكرى عليه السلام مباشرة ، وليس هناك من تفسير معقول سوى اعتقادهم بوجود الإمام الثانى عشر الحجة ابن الحسن ، وأنه الإمام الموعود كما نطقت به الأخبار المتواترة لدى السُنّة والشيعة ، ولذا أسرعوا إلى دار الإمام عليه السلام واتخذوا مثل تلك الإجراءات الاستثنائية بدءاً من التفتيش الواسع والدقيق ، إلى حبس جوارى الإمام وإخضاعهن

---

(١) راجع : الغيبة للنعمانى من أعلام القرن الرابع الهجرى | الباب ١٢ ، الغيبة الكبرى | السيد محمد الصدر | البحث التمهيدى.

للفحص (١) ، كل ذلك فى محاولة يائسة للقبض على الإمام. ولا عجب فقد حصل ذلك من نظرائهم ، وحدّثنا القرآن الكريم عن فعل فرعون للقبض على النبى موسى عليه السلام فنجّاه الله من الكيد.

ومن هنا نفهم السبب فى إخفاء الإمام الصادق عليه السلام هوية المهدى والتفاصيل المتعلقة بهذا الأمر.

وليست الحيرة بعد ذلك والاضطراب إلاّ حالة طبيعية فى ظل مثل تلك الظروف والملابسات الخاصة التى رافقت قضية المهدى عليه السلام فى وجوده وولادته ، وشغب السلطة وتمويهاتهم وإعلامهم الزائف. وإذن فليست (الحيرة) إلاّ بسبب تلك الظروف والملابسات ، فضلاً عن أن الروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام قد أشارت إلى وقوع مثل هذه الحيرة والفتنة والتفرق ، كما نقل ذلك ابن بابويه القمى فى (التبصرة) ، والشيخ النعمانى فى (الغيبة) الباب الثانى عشر.

ثانياً ـ قولهم بضعف الروايات واختلاقها ، ولا ندرى هل أنّهم يفرّقون بين الضعيف والموضوع أم هما عندهم سواء ؟ ثم لماذا هذا الخلط المقصود بين مسألة وجود الإمام الحجة الثابتة بالطرق الصحيحة وبين بعض الروايات التى تلابس (حدث الولادة) ؟ والعجب من ركوب هؤلاء جميعاً هذه الجرأة المفضوحة إذ إن روايات (المهدى) لم تروها كتب الشيعة فحسب ، ولم ترد عن طرقهم فقط ، وإنما روتها الصحاح والمسانيد والجوامع الحديثية المعتبرة كصحيح أب داود ، وصحيح البخارى وشروحه ، ومسند أحمد بن حنبل ، وجامع الطبرانى ، وجمعها السيوطى فى العرف الوردى (٢) من عدة طرق ، وحكى تواترها البرزنجى فى الإشاعة (٣) ،

(١) الإرشاد | الشيخ المفيد : ص ٣٤٥.

(٢) راجع الحاوى للفتاوى | السيوطى ٢ : ٢١٣ وما بعدها.

(٣) الإشاعة لأشراط الساعة : ص ٨٧ ـ ٢٢ ١ الباب الثالث.

ص:٢٤

وكذا الشوكانى فى التوضيح (١) ، ونقل ذلک أخيراً الشيخ منصور على ناصف! فى غاية المأمول (٢) .

فانظر إلى جهل المشككين كيف رموا ما صحّ وتواتر عند جمهور المسلمين من السُنّة والشيعة بالوضع والاختلاق واعجب لجرأتهم وشغبهم! إذ لايصحّ بعد ذلک شيئ مما تناقله الرواة من حوادث التاريخ ، وأسماء الأعلام ، وآراء المذاهب الختلفة.

ثالثاًـ استدل بعضهم على نفى وجود الإمام المهدى وولادته بقوله : إن الشيعة اختلفوا فى المهدى وانقسموا ـ على حدّ زعمه ـ إلى سبع عشرة فرقة بعد وفاة الحسن العسكرى عليه السلام ، وهذا يدل ـ بحسب زعمه ـ على عدم وجود الإمام!!

ولعل من المناسب أن ننبه إلى أنّ الاختلاف حول موضوع أو قضية أو شخص لا يستلزم العدم ، إذ لو جرينا على هذا المنطق لما قامت عقيدة ، ولا ثبت دين ، ولا استقام شأن من الشؤون ، فالاختلاف قائم دائم فى العقائد ، وفى التواريخ ، وفى الشخصيات ، وفى الحوادث الواقعة ، وفى الفروع ، وفى سائر الأمور. وقد تفرّق أبناء الفرقة الواحدة إلى فرقِ وطوائف واتجاهات وآراء كما حدث عند المعتزلة والخوارج والأشاعرة (٣) وغيرهم.. ثم ألم تسمع بما تناقله أهل الحديث من الرواية المشهورة وهى قوله صلى الله عليه وآله وسلم ،... وتفترق أمّتى على ثلاث وسبعين فرقة (۴) .

ونتساءل هنا ، حول أىّ شىء كان الافتراق ؟ وهل يستلزم ذلک نفى ما

---

(١) التوضيح فى تواتر ما جاء من الأحاديث فى المهدى والدجال والمسيح ، كما فى غاية المأمول.

(٢) غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول ٥ : ٣۶٠.

(٣) راجع : مقالات الإسلاميين للأشعرى ، والملل والنحل للشهرستانى ، وفرق النوبختى وغيرها.

(۴) راجع هذه الرواية وغرهافى سنن ابن ماجة ۲ : ۱۳۲۱ | ۳۹۹۱ كتاب الفق ـ باب افتراق الأمم.

ص:۲۵

تفرقوا (فيه) لهذا السبب ؟! وإذن لا تبقى عقيدة ، ولا تسلم حقيقة ، ولا يستقيم أمرٌ بسبب وقوع الافتراق والانقسام فى ذلک بحسب هذا المنطق .

والسؤال الأهم ، ما هى هذه الفرق التى انقسم إليها الشيعة بعد وفاة الإمام العسكرى ؟ وما هى تسمياتهم ؟ ومن هم زعاء ورجال هذه الفرق المزعومة ؟ لقد قال الشهرستانى فى الملل والنحل : «وأما الذين قالوا بإمامة الحسن ـ العسكرى ـ : فافترقوا بعد موته إحدى عشرة فرقة ، وليست لهم ألقاب مشهورة ، ولكنّا نذكر أقاويلهم . . » (۱) . وإذن فهو لا يعرف أسماءهم ولا رجالهم ، وهم حسب زعمه إحدى عشرة فرقة ، أما هؤلاء المقلدون الكذّابون من أمثال إحسان إلهى ومن تابعه أخيراً فقد زادوا العدد فرقاً أخرى ليس لها اسم ولا رسم ، حتى أوصلها أحد هؤلاء المفضوحين إلى سبع عشرة فرقة !! وأنّى لهم بمعرفتها وهى من مختلقاخهم ؟ ولذا لم يذكر أحد منهم زعيماً أو رجلاً معروفاً فى التاريخ من هذه (السبع عشرة) فرقة ، بل ولم يجرأ أحد هؤلاء المفترين على الشيعة أن يشير إلى مكان أو زمان وجودهم.

ويحسن أن ننقل تعليقة العلأمة عبدالحسين شرف الدين فى الفصول المهئة حول هذه الكذبة التى أطلقها الشهرستانى فى مله ، قال العلأمة معقباً : « وليته أسند شيئاً من الأقاويل التى نقلها عن تلک الفرق إلى كتاب يتلى أو شخص خلقه الله تعالى! وليته أخبرنا عن بلاد واحدة من تلک الفرق أو زمانها أو اسمها! فبالله عليک ، هل سمعت بفرق متخاصمة! ، ونحل آراؤها متعاركة لا يُعرف لهم فى الأحياء والأموات رجلٌ ولا امرأةٌ ؟! ولا يوجد فى الخارج الم مسمّى ولا اسم ؟!! » (۲)

---

(۱) الملل والنحل ۱ : ۱۵۱ و ۱۵۲.

(۲) الفصول المهمة نى تأليف الأمة : ص ۱۶۹.

والظاهر أنّ أحدهم قد أدرک خطأه واشتباهه فقال أخيراً : إنّی لم أرفض إماماً ثبت وجوده من أهل البيت عليهم السلام ، وإنمّا حصل عندی شک بولادة الإمام الثانی عشر . زاعماً أنّ السبب هو عدم توفر إلاّدلة الكافية ، أو عدم قناعته بالأدلة!!

والسؤال الذی نثيره هنا هو ، عن أی نوع من الأدلة يبحث هؤلاء ؟ وهل هناک أدلة أقوی من إطباق الطائفة وعلماء الأمّة ورواتها الثقات علی مثل هذا الأمر ، أعنی ولادة الإمام الحجة ابن الحسن ؟ إذ ليس هناک من سبيل إلی ثبوت مثل هذه الأمور إلاّ الخبر الصحيح ، وتوفر الشواهد ، وقيام القرائن والمؤيدات من العقل والمنطق ، وقد ثبت من كل هذه الجهات.

ولعل من المناسب الإشارة إلی ما حققه السيد ثامر العميدی فی كتابه (دفاع عن الكافی) الجزء الأوّل ، وأثبت ولادة الإمام واستمرار وجوده الشريف بالروايات والأحاديث الصحيحة ، ثم بالنقل التاريخی المتواتر ، كما أورد اعترافات وشهادات الفقهاء والمحدّثين والمفسّرين والمؤرخين وأهل التحقيق والأدباء والكتاب ، وكلهم من أهل السُنّة بولادة المهدی محمد بن الحسن العسكری ، ونقل ذلک عنهم بدءاً من بداية القرن الرابع الهجری كالرويانی فی المسند ، وسهل بن عبدالله البخاری (ت | ١ ٣٤ هـ) فی سر السلسلة العلوية ، والخوارزمی (ت | ٣٨٧هـ) فی مفاتيح العلوم طبعة ليدن ١٨٩٥ م.

كما أورد اعترافات من رجال القرن الخامس إلی القرن الرابع عشر ، ومنهم : أبو نعيم الأصفهانی (ت | ٤٣٠ هـ) فی الأربعين حديثاً ، ويحيی بن سلامة الخصفكی الشافعی (ت | ٥٦٨ هـ) كما فی تذكرة الخواص لابن الجوزی ، ومحيی الدين بن عربی (ت | ٦٣٨هـ) فی الفتوحات المكية علی مانقله الشعرانی فی اليواقيت والملک المؤيد أبی الفداء إسماعيل بن علی (ت | ٧٣٢ هـ) فی المختصر فی أخبار البشر ، وابن الصباغ المالكی (ت | ٨٥٥ هـ) فی الفصول المهمة ، وجلال الدين السيوطی (ت | ٩١١هـ) فی

ص:٢٧

إحياء المَيْت ، وابن طولون الحنفی مؤرخ دمشق (ت | ٩٥٣هـ) فی كتابه الائمة الاثنا عشر ، وأحمد بن يوسف أبوالعباس القرمانی الحنفی (ت | ١٠١٩هـ) فی كتابه أخبار الدول ، والشبراوی الشافعی (ت | ١١٧١ هـ) فی الإتحاف بحب الأشراف ، ومحمد أمين السويدی (ت | ١٢٤٦هـ) فی سبائک الذهب ، وأخيراً الزركلی (ت | ١٣٩٦هـ) فی الأعلام ، وهذا الكمُّ الكبير من الروايات والنقول والشواهد والشهود ألا تكفی للاقتناع بوجود شخصِ وولادته ؟ وإذا لم! يكن ذللث كله كافياً ودليلاً ، فلازمه

بالضرورة الشک فی کل الحوادث الماضیة والشخصیات العلمیة والتاریخیة وما جری فی غابر الزمن البعید والقریب ، وعند ذاک لا یصحّ شیء ، ولا یثبت شیء ، فهل هذا یُرضی مثل هؤلاء المتطفلین علی البحث والتحقیق ؟!

وأما إذا کان الأمر من جهة تعقل الموضوع ، فدونک (مجث حول المهدی) للشهید الصدر رضی الله عنه ـ وهو هذا الکتاب الذی بین یدیک ـ فهو الشافی الکافی ، والحجة الدامغة والبرهان القاطع لمن یفکر بعقله ، ولا یتعبد بما نقله وحکاه ذوو الأغراض المعروفة ، والمغالطات المفضوحة أمثال ظهیر والبنداری وغیرهم.

ولعل من الأمور التی تدُلّک علی المغالطة المفضوحة هو قولهم : «لا نستبعد أن یطیل الله عمر إنسان... ولکن لا یمکن الاعتقاد بحدوث هذا عن طریق القیاس ، وقد کان سیدنا الصادق یرفض القیاس فی الفروع ، فکیف فی الأمور التاریخیة والعقائدیة ؟! ».

وقد فاتهم أن القیاس هنا أمر وارد ، ودلیل معتبر عند أهل المنطق وأهل النظر فی مثل هذه الموارد التی قد لا یدرکها الإنسان إلاّ عن طریق التشبیه والقیاس ، وهو أُسلوب علمی ، ومنهج قرآنی (ویَضرِبُ اللهُ الأَمثال لِلنَّاس) إبراهیم : ۲۵ ، وقال تعالی حاکیاً قول المنکرین لبعض الأُمور الاعتقادیة کالمعاد کما فی الآیة المبارکة : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِیَ خَلقَهُ قَالَ مَن یُحیِی العِظَامَ وَهِیَ رَمِیمٌ ۞ قُل

ص:۲۸

یُحییهَا اَلذِی أَنشَأَهَا أَوّلَ مَرَّةٍ ..) یس ۷۸ ـ ۷۹.

فانظر کیف یتنکب المتطفلون عن المنهج القرآنی والعلمی ؟ وانظر إلی عدم تفرقتهم بین القیاس فی أحکام الشریعة المنهیّ عنه ، لعدم إحراز علة الحکم التی بنی الشارع علیها حکمه ، وبین القیاس فی مجال المعقولات الذی لا شبهة فیه.

وهکذا نخلص إلی القول أنّ أصحاب هذا المنهج التشکیکی لیس بأیدیهم حجة ولا برهان ، ولا یملکون سنداً علمیّاً أو تاریخیاً مقبولاً ومنطقیاً فی نفیهم وتشکیکاتهم ، وإنما هی مجرد ظنون وأوهام ، أو افتراضات وحدوس تتهاوی أمام الأدلة والبراهین المتینة ، الروائیة والتاریخیة والعقلیة کما سطّرها وحققها المثبتون لولادة الإمام المهدی علیه السلام واستمرار وجوده الشریف المبارک.

ولا يضير ذلک ما أحيطت به روايات ولادته التى اختلفت من بعض الوجوه ، ومحاولة هذا النفر استغلا لها بصورة غير أمينة ولا دقيقة للتشويش على أصل الموضوع ، وهو ولادة الحجة ابن الحسن محمد المهدى عليه السلام ، وقد ثبت من الطريقً الاعتيادى الذى تثبت به الولادات ، وهو شهادة القابلة حكيمة بنت الإمام الجواد ، وعمة الإمام العسكرى ، وصحّة الرواية عنها بأسانيد معتبرة صحيحة (١).

وإذا كان هناک من نقل روايات أُخرى سواء فى زواج الإمام أبى محمد الحسن العسكرى من (نرجس) أمّ الإمام المهدى عليه السلام أم فى اسمها ، أم فى ولادة المهدى وما جرى ولابس تلک الولادة المباركة ، أم فى الاختلاف فى تاريخ الولادة «فإن المشهور على ما نقلة الثقات من الشيعة والسنّة ، هو ولادته سنة ٢٥٥ هـ فى الخامس عشر من شعبان ، وأنّ أُمّه هى (نرجس) وكانت جارية عند إحدى

---

(١) أصول الكافى : الجزء الأول ـ كتاب الحجة ، وراجع إثبات الوصية | المسعودى : ص ٢١٩.

ص:٢٩

أخوات الإمام على الهادى عليه السلام ، فطلبها الإمام العسكرى وتزوجها ، وولدت منه الإمام المهدى ، كما صرّح به الإمام العسكرى بسند صحيح لا خدشة فيه » (١) . وقد بشّر الإمام العسكرى أصحابه وشيعته خاصة بالمولود المبارک ، وأنه الخلف الحجة الموعود والإمام من بعده (٢) .

وأخيراً لا بدّ من التنبيه أيضاً إلى أنّ منهج هؤلاء المنكرين فى قضية الإمام المهدى عليه السلام يقوم على أُسلوب كان قد اتّبعه المستشرقون من قبل فى معالجاتهم ومناقشاتهم لعقائد الإسلام ، ونبوّة النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء ، ولِمَا جاء فى القرآن الكريم من المفاهيم والأفكار والأحكام ، وهذا الأسلوب يتمثل ـ كما يرى المستشرق المنصف آربرى (٣) ـ « باقتطاع النصوص من سياقها ، وبالتحليل السطحى.. » هذا فضلاً عن المغالطات والمفارقات المنهجية كالإحالة إلى المصادر بصورة غير دقيقة وغير أمينة (٤) ، وكالتدليس والكذب فى نسبة الآراء ، إذ يوردون نصوصاً ثم يذكرون المصادر جملةً ، على سبيل التمويه ، والأنكى والأعجب أ نّهم ـ وبحسب تحليلهم السطحى ـ يطرحون فهمهم لبعض المطالب على أنه المفهوم والرأى عند المذهب أو الطائفة وهو فهم غير دقيق ، ثم يحاولون أن يحشّدوا النصوص ويقسروها لتتلائم مع تصوراتهم وأفهامهم هُم ، وليس مع ما ذهب إليه المذهب أو مع ما كان مقبولاً ومعتمداً.

---

(١) راجع المصدرين السابقين ، وتفصيلات وافية عن الموضوع فى دفاع عن الكافى | السيد ثامر العميدى ١ : ٥۴۶ وما بعدها.

(٢) راجع دفاع عن ألكافى المصدر السابق فى ما نقله بطرق صحيحة معتبرة عن الكافى وغيره.

(٣) راجع المستشرقون والإسلام | الدكتور عرفان عبد الحميد : ص ١٩.

(۴) راجع إحسان إلهى ظهير فى كتابه الشيعة والتشيع ـ فرق وتاريخ ، ومن تابعه فيما أشاروا إليه من كتاب الإمامة والتبصرة من الحيرة لابن بابويه القمى (والد الصدوق) (ت | ٣٢٩) ، ففيه أدلة ضدهم. وراجع ما انتقوه من فرق الشيمة للنوبختى ، وفيه غير ما ذهبوا إليه.

وأرى لزاماً علىّ التنبيه أيضاً إلى أمرٍ مهمٍّ ، ذكره العلاّمة محمد تقى الحكيم فى كتابه الأصول العامة للفقه المقارن قائلاً : «إنّ مجتهدى الشيعة لا يسوّغون نسبة أىّ رأى يكون وليد الاجتهاد إلى المذهب ككل ، سواء كان فى الفقه أم الأصول أم الحديث ، بل يتحمل كل مجتهدٍ مسؤولية رأيه الخاص. نعم ما كان من ضروريات المذهب يصحّ نسبته» (١) .

ومن هنا يكون من المجازفة فى القول تعميم الرأى الاجتهادى ما لم يَحْظ بالقبول والشهرة. وكذلک الأمر فى المجالات الأخرى فإنه لو ذهب أحد المفسرين أو الأخباريين إلى رأى ، أو أخذ برواية ، أو أبدى وجهة نظر معينة ، وحتى لو اعتمد نظرية أو فكرة ، فإنه لايصحّ تحميل المذهب أو الطائفة ذلک ، بل يكون من المنطقى نسبة الرأى إليه ، وتحميله هو اعتماده على هذه الرواية أو تلک ، مع ضرورة الأخذ بنظر الاعتبار منهجه الروائى الخاص. ويكون حينئذ على الباحث العلمى أن يحصّل رأى المذهب من مجموع آراء الفقهاء والعلماء ، واستناداً إلى المنهج العام لديهم بما فى ذلک منهجهم فى قبول الأخبار والروايات والأسانيد ، وكذلک يشترط الرجوع إلى ما أصّلوه من المفاهيم والآراء بالرجوع إلى المصادر الأصلية والأساسية لديهم.

وعليه فبدون ذلک ، أعنى بدون الالتفات إلى هذه الملاحظات المهمة ، فإنّ الباحثين سيقعون بلا أدفى شک فى الخلط والمجازفة والاشتباه ، ولايُعفَون حينئذ من سوء القصد ومحاولة المشاغبة والتشويش وهو ما دأبَ عليه أسلافهم من المستشرقين وخصوم الإسلام أو الحاقدين على أهل البيت عليهم السلام ، وعلى مدرستهم الأصيلة فى الإسلام الحنيف ، كما هو شأن إحسان إلهى ظهير والجبهان والبندارى وغيرهم فى القديم والحديث.

(١) الأصول العامة للفقه المقارن : ص ٥٩٦ ، الطبعة ـ الثانية ١٩٧٩ م ، دار الأندلس ـ بيروت.

ص:٣١

وتبقى كلمة أخيرة فيما يتعلق بالمهدى الموعود عليه السلام بعد ثبوت ولادته الميمونة ووجوده المبارک ، وهى مسألة تعقل أو عقلانية استمرار وجوده الشريف وثبوت ذلک منذ الغيبة الصغرى ، وحتى انقطاع السفارة ثمّ وقوع الغيبة الكبرى . وهنا سيجدُ القارئ الكريم والباحث الطالب للحقيقة سيجد فيما كتبه السيد الشهيد ، ووضّحه من هذه المطالب ، وما ساقه من الأدلّة العقلية والمنطقية والعلمية ما يشفى الغليل ، ويزيل أوهام وتعلقات المشككين .

ثانياً : منهج المثبتين

١ ـ المنهج الروائى : إنّ الذين كتبوا فى قضية المهدى كثيرون جداً ، قديماً وحديثاً ، ومنهم من أفرده بكتاب مستقل ومنهم من كتب فصلاً أو فصولاً ، وقد احصى عبد المحسن العباد فى بحثه المنشور فى مجلة الجامعة الإسلامية الصادرة بالمدينة المنورة أكثر من عشرة مؤلفين من أجلاء علماء أهل السنّة ، منهم : الحافظ أبو نعيم والسيوطى الشافعى ، والحافظ ابن كثير ، وعلى المتقى الهندى صاحب كنز العمال ، وابن حجر المكى فى مؤلّفه : (القول المختصر فى علامات المهدى المنتظر) ، ومرعى بن يوسف الحنبلى (ت / ١٠٣٣ هـ) ، ومؤلّفه الذى سمّاه (فوائد الفكر فى ظهور المهدى المنتظر) ، ذكره السفارينى فى لوامع الأنوار البهية ، ومنهم : القاضى محمد بن على الشوكانى (ت / ١٢٥٠ هـ) الذى سمّى مؤلّفه : (التوضيح فى تواترما جاء فى المهدى المنتظر والدجال والمسيح) إلى غيرهم .

أمّا عند الشيعة فهناک عشرات الكتب والرسائل التى كتبت ونشرت قديماً وحديثاً منها أخيراً : منتخب الأثر فى الإمام الثانى عشر للشيخ لطف الله الصافى الگلپايگانى ، وإلزام الناصب فى إثبات الحجة الغائب للشيخ على اليزدى الحائرى ، والمهدى الموعود المنتظر عند علماء أهل السنّة والإمامية للشيخ نجم الدين

ص:٣٢

العسكرى ، نشر مؤسسة الإمام المهدى ـ طهران ، والإمام المهدى لعلى محمد على دخيل طبع بيروت ، وهو جليل ومهم جداً .

وقد اعتمد هؤلاء العلماء وغيرهم فى مناقشاتهم لدعاوى المنكرين على الأدلة النقلية غالباً ، فأثبتوا صحّة أحاديث المهدى من طرق أهل السنّة والشيعة (١) ، وتعدد طرق الرواية ، وكثرة الرواة من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين من سائر الفرق والمذاهب الإسلامية.

فقد نقل الشيخ العباد أن رواة حديث المهدى من الصحابة ستة وعشرون راوياً ، أمّا الأئمة الذين خرّجوا الأحاديث والآثار الواردة فى المهدى فيبلغ عددهم ثمانية وثلاثين ، ذكر أسماءهم وفى مقدمتهم أبو داود فى سننه ، والترمذى فى جامعه ، والنسائى فى سننه ، وأحمد فى مسنده ، وأبو بكر بن شيبة فى المصنف ، والحافظ أبو نعيم فى الحلية وفى كتاب المهدى ، والطبرانى فى المعجم الكبير والأوسط ، وابن عساكر فى تاريخه ، وأبو يعلى الموصلى فى مسنده ، وابن جرير فى تهذيب الآثار ، والبيهقى فى دلائله ، وابن سعد فى الطبقات وغيرهم.

ونريد أن نسأل (أحمد أمين) ومن عزف على نغمته هنا : هل أنّ مثل هؤلاء الأئمة من علماء الحديث والرواة المعتبرين الذين تلقتهم الأمّة بالقبول ، واعتمدت عليهم فيما نقلوه من صحيح الآثار أو صححوه ، كلهم يتواطؤن على نقل (أسطورة) ؟ وكيف يعقل أن تهتم الأمّة ، وأجلة العلماء والمحققين وأصحاب الصحاح والمسانيد (باسطورة) إلى هذا الحدّ ؟! ولماذا هذه الجرأة المنافية لأبسط قواعد الذوق والمنطق والعلم والأخلاق ؟ أوليس تدلّ مثل هذه التشويشات على

---

(١) راجع : عقيدة أهل السنّة والأثر فى المهدى المنتظر | الشّيخ عبد المحسن العبّاد ، مجلة الجامعة الإسلامية | العدد الثالث | السنة الأولى ١٩٦٩ م ، وراجع : منتخب الأثر | العلأمة الصافى الگلبايگانى.

ص:٣٣

ركوب الهوى أو الانسياق واللهاث وراء تلويحات الوهابية ، (ورنين إغراءاتها) ؟ بل إن العلماء المتقدمين منهم والمتأخرين أثبتوا تواتر أحاديث المهدى ليقطعوا الطريق والعذر على المتشككين والمتأولين ، كما فعل الشوكانى (ت | ١٢٥٠هـ) فى رسالته المسمّاة ب (التوضيح فى تواتر ما جاء فى المهدى والدجال والمسيح) ، والبزرنجى (ت | ١١٠٣هـ) فى (الإشاعة لأشراط الساعة) ، ثم ذ كر الشيخ عبد المحسن العباد فى بحثه المنشور فى مجلة الجامعة الإسلامية آخرين ، منهم : الحافظ الآبرى السجزى (ت | ٣٦٣ هـ) ، والشيخ محمد السفارينى (ت | ١١٨٨ هـ) فى كتابه لوامع الأنوار البهية ، ومنهم : الشيخ صديق حسن القنوچى (ت | ١٣٠٧ هـ) ، ومن المتأخرين الذين حكوا تواتر أحاديث المهدى الشيخ محمد بن جعفر الكتانى (ت | ١٣٤٥هـ) فى كتابه نظم المتناثر من الحديث المتواتر.

وقد تصدّى العلماء أيضاً إلى ما تعلّق به الخصوم من دعاوى ، وما أثاروه من إشكالات وطعون فى الروايات وأجابوا (١) عن ذلک بجوابات سديدة ومتينة ، ولعلّ من أهم هذه الدراسات الحديثة :

الف ـ دراسة عبد المحسن العباد (٢) ـ وهو إستاذ جامعى ومن علماء أهل السنّة ـ وهى على ما فيها من زلّات واشتباهات ، إلاّ أنه عرض فيها بالتفصيل لذكر أسماء الصحابة الذين رووا أحاديث المهدى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وأحصى منهم ستة وعشرين صحابياً ، ثم ذكر أسماء الأئمة الذين خرّجوا أحاديث المهدى ، وأحصى منهم ـ أى من أئمة الحديث ـ ثمانية وثلاثين ، ثمّ أورد بعد ذلک أسماء العلماء الذين أفردوا مسألة المهدى بالتأليف ، وذكر عشرة منهم ، ثم ذكر بعض الذين حكوا تواتر أحاديث المهدى ، ثمّ انتقل إلى ذكر ما ورد فى الصحيحين ممّا له تعلّق

---

(١) راجع الأجوبة عن طعونهم فى دفاع عن الكافى | السيد ثامر العميدى ١ : ٢٠٥.

(٢) تقدمت الإشارة إلى عنوان بحثه ومصدره.

بالمهدى ، ثم انتقل إلى ذكر بعض الأحاديث فى غير الصحيحين من السنن والمسانيد ، ثّم ذكر بعض العلماء الذين احتجوا بأحاديث المهدى واعتقدوا موجبها ، ثم تعرض بالمناقشة القوية للمنكرين لأحاديث المهدى أو المترددين فى شأنه ، وذكر منهم ابن خلدون ، وسجّل عليه ملاحظات وإيرادات أظهر فيها تهافته وعدم تبصّره بالأُمور ، ونقل عن الشيخ المحقق أحمد شاكر

الذى حقق مسند الإمام أحمد وخرّج أحاديثه قوله عن ابن خلدون رادّاً عليه تشكيكاته : «أما ابن خلدون فقد قفا ما ليس له به علم واقتحم قحماً لم يكن من رجا لها ، وأنه تهافت تهافتاً عجيباً فى الفصل الذى عقده فى مقدمته للمهدى وغلط أغلاطاً واضحة..» وانتهى آخر الأمر إلى أنّ المهدى حقيقة ثابتة لا تقبل الشك.

ب ـ أمّا الدراسة الثانية فكانت للباحث والمحقق ثامر العميدى ، الذى جرى على منهج علماء الإمامية الأجلّاء الذين عالجوا هذه المسألة ، وأشبعوها بحثاً واستقصاءً ، واستطاع هذا الباحث الفاضل أن يُلخّص تلك المطالب ، ويستوفى تلك المضامين ويستوعبها ، ويضفى على ذلك كله من بيانه وتحقيقاته ، ويخرجه على منهج علمى رصين ، وقد استغرقت هذه الدراسة الصفحات من ١٧١ إلى ٦١١ من الجزء الأول من كتابه القيّم (دفاع عن الكافى) الذى نشره مركز الغدير للدراسات الإسلامية سنة ١٩٩٥ م.

ومن أهم الأمور التى عرض لها بأُسلوب علمى : تحليل فكرة الاعتقاد بالمهدى (١) ، ومناقشاته لتضعيفات ابن خلدون (٢) ، ونقله أكثر من ثمانٍ وخمسين (٣) شهادة وتصريح بصحة أحاديث المهدى أو تواترها ، ثم مناقشته لمن أنكر ولادة

---

(١) دفاع عن الكافى | السيد ثامر العميدى ١ : ١٧١ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه ١ : ٢٠٥.

(٣) المصدر نفسه ١ : ٣٤٣.

المهدى ، وإيراده أدلةً وافية متينة واعترافات من أهل السنّة بدءاً من القرن الرابع الهجرى وحتى قرننا الحالى بولادة الإمام المهدى ووجوده الشريف (١) ، وأخيراً مناقشته الطريفة لفرية السرداب (٢) وغيرها.

لقد أوردت هاتين الدراستين بصفتهما نموذجين حديثين للدراسات التى التزمت بمسلك العلماء المتقدمين والإفادة منهم واتّباع منهجهم ، وإلّا فهناك عشرات الدراسات لأفاضل العلماء والمحققين ممن برع فى مناقشة تلك القضية (٣) .

٢ ـ المنهج العقلى (منهج الشهيد الصدر رضى الله عنه) :

لم ينطلق الشهيد الصدر فى بحثه (قضية المهدى) من بديهيات ومقدمات مسلم بها عند الأطراف ، ولم يعتمد تتّبع القضية فى كتب التفسير والرواية ، أو مناقشة ما ورد بشأنها من أسانيد ، وإنما سلك مسلكاً آخر ، فبدأ بطرح الإثارات حول القضية وعرض التساؤلات والإشكالات المنتزعة مما قيل ويقال حول القضية ، ثمّ بدأ بالمناقشة العميقة والدقيقة معتمداً الدليل العقلى ، ومستنداً إلى معطيات العلم والحضارة المعاصرة ، ونعرض معالم هذا المنهج كما يأتى :

ألف ـ لقد مهّد السيد الشهيد لبحثه بإعطاء تصور واضحٍ لفكرة المهدى (۴) فى جذورها الممتدّة إلى التراث الدينى والإنسانى ، ثم انتقل إلى تأصيلها فى الفكر الإسلامى ، ثم عرضها فى التصور الإسلامى على أنّها ليست مجرّد فكرة وأمل

---

(۱) دفاع عن الكافى ۱ : ۵۳۵.

(۲) المصدر نفسه ۱ : ۵۹۳.

(۳) راجع ما أشار إليه وذكره الشيخ العباد فى دراسته المشار إليها سابقاً ، وراجع ما ذكره السيد الجلالى أيضاً فى بحثه المذكور فى مطلع المقدمة ، وراجع دراسة الشيخ على محمد على دخيل المشار إليها فى الصحيفة ۳۲.

(۴) راجع الصحيفة ۵۵ وما بعدها من هذا الكتاب.

يداعب الشعور ، ويجد عنده الإنسان المسلم استراحةً تخلصه من حالة التوتر النفسى عندما تشتد وتتعاظم المحنة ـ كما هو زعم بعض الباحثين ـ وإنما (المهدى) يتجسد فى إنسان معين (۱) حىّ يعيش مع الناس ويشاركهم وهمومهم وآلامهم ، ويترقب مثلهم اليوم الموعود.

ب ـ إن هناک صعوبة فى استيعاب هذا التصور الأصيل ، فقد أثار إشكالات وتساؤلات هى فى عقول الناس ، وفى حواراتهم المعلنة أو الحبيسة ، ومن هنا بدأ الشهيد الصدر رضى الله عنه يطرح هذه التساؤلات والإثارات بكل صراحة ووضوح ، ثم يشرع فى معالجتها بأُسلوبه الخاص ؛ وذلک ليضع القضية فى محلها الطبيعى ضمن إطار العقيدة الإسلامية التى تقوم أساساً على العقلانية والواقعية والبرهان.

أ ـ والتساؤل الأوّل الذى يطرحه السيد الشهيد هو :

«إذا كان المهدى يُعبّر عن إنسان حىّ عاصركل تلك الأجيال المتعاقبة منذ أكثر من عشرة قرون ، وسيظل يعاصر امتداداتها ، فكيف تأتّى له هذا العمر الطويل ؟ !وكيف نجا من القوانين الطبيعية التى تحتم مروره بمرحلة الشيخوخة والهرم ؟! » ثم أخذ ينتقل من سؤال إلى سؤال ، ومن إثارة إلى إثارة بترتيب منطقى يمهد الجواب السابق للاحق ، وتترابط المضامين والمباحث ترابطآ منهجياً محكماً . وبالنسبة إلى السؤال الأوّل أعاد طرحه كالآتى : هل بالإمكان أن يعيش الإنسان قروناً متطاولة ، كما هو المفترض فى المهدى الذى طوى من العمر أكثر من ألف ومئة وأربعين سنة (٢) ؟ وهذه الصياغة للسؤال لا تختلف بشىء عن السابق ،

---

(١) راجع الصحيفة ٥٥ ـ ٥٦ من هذا الكتاب .

(٢) هذا التاريخ إشارة إلى الفترة من ولادة الإمام المهدى عليه السلام إلى تاريخ كتابة البحث وإنجازه فى سنة ١٣٩٧ هـ .

وتمهيداً للجواب أعطى إيضاحاً لأنواع الإمكان المتصورة أو المعروفة وهى الإمكان العملى ، والإمكان العلمى ، والإمكان المنطقى أو الفلسفى ، وبعد أن بين المقصود بها خلص إلى القول : بـ «أن امتداد عمر الإنسان آلاف السنين ممكن منطقياً؛ لأن ذلك ليس مستحيلاً من وجهة نظر عقلية تجريدية» وأن الإمكان العملى بالنسبة إلى نوع الإنسان ليس متاحاً الآن ، والتجربة المعاصرة لا تساعد عليه.

أما الإمكان العلمى فلا يوجد ما يبرر رفض ذلك من الناحية النظرية؛ لأن التجارب آخذه بالازدياد لتحويل الإمكان العلمى إلى إمكان عملى ، وهى سائرة بهذا الاتجاه من زاوية محاولاتها لتعطيل قانون الشيخوخة. وفى ضوء هذا لا يبقى مبرر منطقى للاستغراب والإنكار اللهم إلاّ من جهة أن يسبق (المهدى) العلم نفسه فيتحول الإمكان النظرى إلى إمكان عملى فى شخصه قبل أن يصل العلم فى تطوره إلى مستوى القدرة الفعلية. وهذا أيضاً لا يوجد مبرر عقلائى لاستبعاده وإنكاره ، إذ هو نظير من يسبق العلم فى اكتشاف دواء السرطان أو غيره مثلاً.

إن هذا السبق ـ كما يقول السيد الشهيد ـ فى الأُطروحة الإسلامية عموماً ـ التى صممت قضية المهدى ـ قد وقع وحصل فى أكثر من مفردة وعنوان ، وقد سجّل القرآن الكريم نظائر ذلك حين أورد وأشار إلى حقائق علمية تتعلق بالكون والطبيعة وجاء العلم فأزاح الستار عنها أخيراً ، والأكثر صراحة أن القرآن قد دوّن أمثال ذلك كما فى مسألة عمر النبى نوح عليه السلام قال

تعالى : (فَلِبثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاّ خَمْسِينَ عَاماً) سورة العنكبوت : ١۴ ، ثم ينتقل السيد الشهيد إلى افتراضٍ آخر ينشأ عن السابق وهو :

ماذا لو افترضنا أنّ قانون الشيخوخة قانون صارم ، وأنّ إطالة العمر أكثر من الحدّ الطبيعى والمعتاد خلاف القوانين الطبيعية التى دلّنا عليه الاستقراء ؟ !

وجوابه : أنه حينئذ يكون من قبيل المعجزة ، وهى ليست حالة فريدة فى

ص:٣٨

تاريخ الأنبياء والمرسلين ، والأمر بالنسبة للمسلم الذى يستمد عقيدته من القرآن والسنّة المشرّفة ليس أمراً منكراً ، إذ هو يجد أنّ القانون الذى هو اكثر صرامة قد عُطّل ، كما حدث بالنسبة إلى النبى إبراهيم الخليل عليه السلام فى نجاته من النار العظيمة بعد أن أُلقى فيها ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلک بقوله : (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ) سروة الأنبياء : ۶۹ .

ثمّ يبيّن السيد الشهيد بعد ذلک انّ مسألة المعجزة بمفهوها الدينى قد أصبحت فى ضوء المنطق العلمى الحديث مفهومةً بدرجةٍ أكبر مما كانت عليه . وشرع فى تقديم المعالجة الفلسفية المتينة مستنداً إلى النظريات الفلسفية الحديثة .

بً ـ وينتقل السيد الشهيد إلى سؤال آخر وهو :

لماذا كل هذا الحرص على إطالة عمر المهدى إلى هذا الحدّ ، فتعطل القوانين لأجله ؟ ولماذا لا نقبل الافتراض الآخر الذى يقول : إنّ قيادة البشرية فى اليوم الموعود يمكن ان تترک لشخص آخر يتمخض عنه المستقبل وتنضجه إرهاصات ذلک اليوم ؟ ويعيد صياغة السؤال كالآتى :

ما هى فائدة هذه الغيبة الطويلة ؟ وماهو المبرر لها ؟ ويعقّب هنا قائلاً : إنّ الناس لا يريدون أن يسمعوا جواباً غيبياً أى أنّهم يطالبون بتفسير اجتماعى للموقف على ضوء الحقائق المحسوسة لعملية التغيير الكبرى نفسها .

وللإجابة عن هذا السؤال ، يتقدم السيد الشهيد وهو متسلح بالمعرفة بقوانين الاجتماع ، وبمتطلبات التغيير الاجتماعى وقوانينه ، فيبدأ بطرح سؤال يمهد به للإجابة ، وهو :

هل يمكن أن نعتبر هذا العمر الطويل للقائد المدّخر عاملاً من عوامل نجاحه فى عملية التغيير المرتقب ؟ ثمّ يجيب بالإيجاب ، ويقدم أدلّة تستند إلى فهم عميق

لحركة التاريخ ، ومستلزمات التغيير الحضارى الشامل ، وأثر الحضارات التى ينشأ الإنسان فى ظلها على مستوى تفكيره ورؤاه ودوره الحضارى ، ثم يكئف المسألة فى ضوء رسالة الإسلام والنقلة الحضارية التى يريدها.

وهكذا يحوّل السيد الشهيد البحث إلى دراسة اجتماعية تعتمد المقولات والمفاهيم الاجماعية ، فضلاً عن تأصيل مفاهيم ونظرات اجماعية مهمة.

جً ـ ينتقل الشهيد الصدر رضى الله عنه بعد ذلک إلى معالجة قضية أكبر ترتبط بقضية المهدى وهى :

(الإمامة المبكرة) أو (كيفية إعداد القائد الرسالى) فى نظرية الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية ، فيذكر أن هذه الظاهرة (الإمامة المبكرة) عاشتها الأئة فعلاً (١) ، وقد بلغت ذروتها فى الإمام المهدى والإمام الجواد من قبله .

وهذه الظاهرة ـ كما يقول رضوان الله تعالى عليه ـ «تشكل مدلولاً حسيّاً عملياً عاشه المسلمون ووعوه فى تجربتهم مع الإمام بشكل وآخر ، ولا يمكن أن نطالب بإثبات لظاهر هى من الظواهر هى أوضح وأقوى من تجربة أمّة» (٢) .

ويورد السيد الشهيد كثيراً من الحقائق التاريخية التى تؤكد هذه الظاهرة ، ثم يخلص إلى القول : بأخها أى الإمامة المبكرة فى ضوء ذلک كانت ظاهرة واقعية وليست وهماً أو مجرد افتراض ، وأن الا أمثلة فى القرآن الكريم ، كما هو الأمر بالنسبة إلى النبى يحيى عليه السلام فى قوله تعالى : (وآتيناه الحكم صبيّاً) سورة مريم : ١٢. وهذا ما لا يسع المسلم إنكاره.

---

(١) راجع : الإرشاد | الشيخ المفيد : ص ٣١٩ وما بعدها ، وأيضاً الصواعق المحرقة لابن حجر : ص ٢٢٣ و ٢٢٤.

(٢) راجع : الصواعق المحرقة كما سيذكر فى محله من الكتاب المحقق ص ٩٤.

ص:۴۰

دً ـ وينتقل السيد الشهيد إلى البحث الروائى وإلى ما رذده وأثاره المشككون والخصوم قديماً وحديثاً بقوله :

«كيف نؤمن فعلاً بوجود المهدى ؟ وهل تكنى بضع روايات تنقل فى بطون الكتب عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم للاقتناع الكامل بالإمام الثانى عشر على الرغم مما فى هذا الافتراض من كرابة وخروج عن المألوف ؟ بل كيف يمكن أن ثبت أن للمهدى وجوداً تأريخياً حقاً ، وليس مجرد افتراض توفرت ظروف نفسية لتثبيته ؟ »

هكذا يطرح السيد ال!ثهيد هذا السؤال بكل تفرعاته الممكنة والمنتزع بعضها مما أثاره ويثيره بعض المتأثرين بمناهج الغرب فى دراسة تاريخنا الإسلامى وقضايانا الإسلامية مثل أحمد أمين فى دراسته (المهدى والمهدوية) ومرا سلك حذا المسلك من الخصوم (١) .

ويتصدى السيد الشهيد للإجابة عن هذا السؤال متسلحاً ومتوسلاً بمنطق العقل والدليل العقلى ، وعندما يعرض الدليل الروائى أيضاً فى المقام نجده يعرضه مدعوماً بالوثائق والواقع والتجربة التاريخية ، ولنسمعه يقول :

«إن فكرة المهدى بوصفه القائد المنتظر لتغيير العالم إلى الأفضل قد جاءت فى أحاديث الرسول الأعظم عموماً ، وفى روايات أئمة أهل البيت خصوصاً ، وأكدت فى نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشک ، وقد أحصى أربعمائة حديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من طرق إخواننا أهل الشئة ، كما أحصى مجموع الأخبار الواردة فى الإمام المهدى من طرق الشيعة والشئة فكانت أكز من (ستة آلاف رواية) ، وهذا ـ كما يقول السيد المثهيد ـ رقم إحصائى كبير لا يتوفر نظيره فى كثير

---

(١) أثرنا إلى طائفة منهم فى الصحيفة ١۶.

ص:۴١

من قضايا الإسلام البدعية التى لا يشک فيها مسلخ عادة» (١) .

ج ـ يتخذ السيد الشهيد رضى الله عنه هنا مسلکاً جديداً فى الاستدلال على (الخصوصية المذهبية) أى مسألة تجسيد الفكرة (فكرة المهدى) فى إنسان معين هو الإمام الثانى عشر ، مستفيداً من الروايات والبحث الروائى ، وموظفاً ذللث بصورؤ مبدعل! فى إثبات (المهدى) ، فيطرح أولاً المبررات التى يراها كافية للاقتناع ويلخصها فى دليلين أحدهما أطلق عليه (الدليل الإسلامى) والآخر (العلمى) فيقول : «فبالدليل الإسلامى نثبت وجود القائد المنتظر ، وبالدليل العلمى نبرهن على أن المهدى ليس مجرد أسطورة وافتراض بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة ا لتا ريخية» .

ويشرع بتقديم الدليل الإسلامى فيراه متمثلاً بمئات الروايات الواردة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، والأئمة من أهل البيت عليهم السلام والتى تدلّ على تعيين المهدى وكونه من أهل البيت ، ومن ولد فاطمة ، ومن ذرية الحسين عليه السلام وليس من ذرية الحسن عليه السلام ، وأنه التاسع من ولد الحسين عليه السلام ، وأن الخلفاء اثنا عشر. فإن هذه الروايات تحدد تلک الفكرة العامة وتشخفها فى الإمام الثانى عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام .

ثم يقول رضوان الله تعالى عليه بشأن تلک الروايات : «وهى روايات بلغت درجة كبيرة من الكثرة والانتشار ـ كما ورد عن طرقنا ـ على الرغم من تحفظ الأئمة عليهم السلام واحتياطهم فى طرح ذلک على المستوى العام وقاية للخلف الصالح من الاغتيال..» .

إن الروايات الكثيرة جداً التى تشكل رقماً إحصائياً كبيراً ـ أى بلوغها حدّ

---

(١) راجع الصحيفة ١٠٣ ـ ١٠٤ من هزا الكتاب.

التواتركا حكى غير واحد من العلماء ـ يرى السيد الشهيد أن الأساس فى قبولها ليس مجرد الكزة العددية على الرغم من أنه قد استقز فى الأوساط العلمية الروائية اعتبار مثل هذه الكزة ، بل هناک إضافة إلى ذلک مزايا وقرائن تبرهن على صحتها.

فالحديث الشريف عن الأئمة أو الخلفاء أو الأمراء بعده صلى الله عليه وآله وسلّم ، وأنهم اثنا عشر إماماً أو خليفة أو أميراً على اختلاف مق الحديث فى طرت الختلفة ، قد أحصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت أكز من مئتين وسبعين رواية مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والشئة بما فى ذلک البخارى ومسلم والترمذى وأب داود ومسند أحمد ومستدرک الحاكم ، وقد

لاحظ الشهيد الصدر رضى الله عنه هنا أن البخارى (المولود ١٩٤ ، والمتوفى ٢٥٦ هـ) ، الذى نقل الحديث كان معاصراًللإمام الجواد والإمامين الهادى والعسكرى وفى ذلک مغزى كبير ؟ لأنه يبرهن على أن الحديث قد شخل عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يتحقق مضمونه ، وهذا يعنى أن نقل الحديث لم يكن متأثراً بالواقع الإمامى الاثنى عشرى أو يكون انعكاساً له ؟ لأن الروايات المزيفة التى ئنسب إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وهى انعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنياً لا تسبق فى ظهورها وتسجيلها كتب الحديث ، ولقد جاء الواقع الإمامى الاثنا عشرى ابتداة بالإمام على وانتهاة بالمهدى ؟ ليكون التطبيق الوحيد المعقول لذلک الحديث النبوى الشريف.

هذا هو الدليل الإسلامى ، كما اصطلح عليه السيد الشهيد ، أى الدليل الروائى فى إثبات المهدى .

أما الدليل الآخر الذى اصطلح عليه بـ (العلمى) والذى يسوقه السيد الشهيد لإثبات الوجود التاريخى للمهدى ، وأنه إنسان بعينه ولد وعاش واتصل بقواعده الشعبية وبخاصته ، فإن هذا الدليل يتكون كما يرى السيد الشهيد من التجربة التى

ص:٤٣

عاشتها أفة من الناس فترة امتدت سبعين سنة تقريباً وهى فترة الغيبة الصغرى. ويعطى السيد الشهيد هنا فكرة عن هذه الغيبة ، ويفلسفها ، مبيناً دور القائد المهدى ، ودورسفرائه الأربعة ، وما صدر عنه من إتوقيعات) أى رسائل وإجابات كلها جرت على أشلوب واحد ، وبخط واحد وسليقة واحدة طيلة نيابة النواب الأربعة الختلفين أسلوباً وسليقة وذوقاً وخطاً وبياناً ، ومثل هذا كاشف بالضرورة عن وجود (الرجل) ، لأنه قد ثبت واستقر فى الأوساط الأدبية وبما لا يقبل الشک أن الأسلوب هو الرجل ، وكل الدارسين والمتذوقين للأدب يدركون هذه الحقيقة بوضوح.

وبعد هذه القرينة والشواهد القوية على وجود الإمام المهدى كما يؤكدها السيد الشهيد يتجه إلى منطق الاستقراء ونظريه الاحمال لتعزيز ذلک فيقول : «لقد قيل قديماً : إن حبل الكذب قصير ، ومنطق الحياة يثبت أيضاً أن من المستحيل عملياً بحساب الاحمالات أن تعيش أكذوبة جمهذا الشكل ، وكل هذه المدة ، وضمن كل تلک العلاقات والأخذ والعطاء ثم تكسب ثقة جميع من حوالا» .

وهكذا يخلص السيد ال!ثهيد إلى القول أخيراً : «أن ظاهرة الغيبة الصغرى يمكن أن تعتبر بمثابة تجربة علمية لإثبات ما لها من واقع موضوعى ، والتسليم بالإمام القائد ، بولادته وحياته وغيبته وإعلانه العام عن الغيبة الكبرى التى استتر بموجبها عن المسرح ولم يكشف نفسه لأحد » (١) أى حتى يأذن الله تعالى له بالظهور لتأدية دوره ووظيفته التغييرية الكبرى «فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعدما فلئت ظلماً وجوراً» ، كما بمثر بذلک خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وآله ، وهذا هو ما عليه اعتقاد الإمامية ، ومقتضى توقيع الإمام الثانى عشر بإعلانه الغيبة الكبرى.

وأخيراً واستكمالاً للبحث ، ربما يثير بعضهم سؤالاً حول المنهج الذى اتبعه

---

(١) راجع الصحائف ١٠٤ ـ ١١١ من هذا الكتاب.

الإمام الشهيد كما حدّدناه ، وكما هو فى واقعه ـ والسؤال هو :

لماذا لم يسلک السيد الشهيد منهج المتقدمين فى البحث الروائى ، ويضنى عليه من إبداعاته والتفاتاته ما يزيل الشكوک والتقولات التى تثار حول أسانيد الروايات ، وتضعيف بعفهم لما ؟

وفى الجواب عن ذلک نسجل الملاحظات الآتية :

أولاً : لقد ذكر السيد الشهيد أن هناک عدداً هائلاً من الروايات بلغت رقماً إحصائياً لم يتوفر لأية قضية مشاجمهة من قضايا الإسلام ، بل إن بعفهم حكى التواتر فيها ، وعليه فليس بوسع مسلبم إنكار ذلک أو عدم الاعتقاد بموجبه الفهم إلاّ لجهة أخرى ، وليس هى إلاّ جهة تعفل المسألة ، وقد حظيت باهمامه وبالتركيز عليها.

ثانياً : إن أكز المنكرين المعاصرين إنما أنكروها من زاوية عدم تعفل الفكرة أو تشخيصها ونجسيدها فى إنسان ولد قبل قرون ، وما يزال ذا وجوب حى حقيقى . ومن هنا اتخه السيد الشهيد ـ بلحاظ أن القضية فى حقيقتها إسلامية وليست مذهبية فحسب ـ إلى (عقلنتها) من جميع جهاتها أو ما يلابسها ، تصوراً وقبولاً وواقعاً.

ثالثاً : إن شأن الإيمان بالمهدى شأن الإيمان بمطلق ما ورد من المغيبات مما ثبت عن طريق الرواية كسؤال منكر ؤنكير فى القبر ونحو ذلک مما لم يرد فى البخارى ومسلم (١) ، ومع ذلک فإن أحداً من أبناء الإسلام لا يسعه إنكاره.

رابعاً : إن الاختلاف بين المتعبدين بحجية الخبر الصحيح والإيمان بموجبه ،

---

(١) راجع بحث الشيخ عبد المحسن العباد المنشور فى مجلة الجامعة الإسلامية الصادرة بالمدينة المنورة | سنة ١٩٦٩ م.

ص:٤٥

وعدم جواز تكذيبه ، إنما كان فى مصداق القضية المتجسد فى إنسان لا فى أصل قضية المهدى ، وهو مما احتاج إلى تقديم المبررات المنطقية والعلمية لقبوله.

خامساً : إن الذين أنكروا أو شككوا بالروايات الواردة فى المهدى ، وحاولوا تضعيفها ليسوا من أهل الفن والعلم بالرواية وبالأسانيد (١) ، ولذلک فليس ما يدعو إلى إتعاب النفس معهم كثيراً ، بل لا بد من الانجاه إلى تثبيت العقيدة فى نفوس المؤمنين وذلک (بعقلنتها) وتوظيفها لإعلاح شأنهم وشؤونهم. ولقد تعامل السيد ال!ثهيد مع قضية المهدى على أنها تجربة أئة ، وقضية أفة ، وكحقيقة ثابتة تاريخية تعيشحها الأفة شعوراً وأملاً وترقباً وانتظاراً إيجابياً فاعلاً ومؤثراً فى حياتها وجهادها المستمر بلا هوادة فى مواجهة الظلم والظالمين والطغاة والجبارين ، هذا فضلاً على أن العلماء المتقدمين والمتأخرين قد أشبعوا هذا الموضوع بحثاً وتحقيقاً وناقشوا مناقشات وافية شافية كل الطعون والأقوال والتضعيفات المزعومة ، وقد أشرنا إلى ذلک آنفاً.

سادساً : إن من التهافت ، والخطل فى الرأى بالنسبة إلى من يؤمن بموجب الخبر الصحيح ، ويوجب تصديقه لمجرد وروده فى البخارى حتى لو كان مصادماً لبعض الحقائق الطبيعية أو منافياً للعقل أو للذوق إذ يوجب تأويله حينئذ (٢) ، حيث وردت مجموعة من الأحاديث والروايات مما يتنافى مع العقل والذوق فى صحيح البخارى . ثم عندما تصل النوبة إلى مسألة (المهدى المنتظر) على تعدد طرقها ، وصحة أسانيدها فى السق والمسانيد ، وعلى شرط البخارى ومسلم ، نراه يتوقف أو يتحفظ أو يتردد ، وليس لديه حجة إلأ أن المسألة ـ حسب تصوره

---

(١) راجع البحث السابق للشيخ العباد ، ودفاع عن الكافى | السيد ثامر العميدى ١ : ٢٠٥ ـ ٥٢٣.

(٢) راجع : تأويل نحتلف الحديث لابن قتيبة : ص ٢٧٦ ، طبعة القاهرة ١٣٢٦! ، أضواء على الشئة المحمدية | الشيخ محمود أبو رئة ، دراسات فى البخارى والكافى | هالثم معروف الحسنى.

ص:۴۶

القاصر ـ من معتقدات الشيعة (۱) ، مع أنها كما ثبت عقيدة السلف والخلف من جمهور الأمّة على امتداد القرون ، كما نبّه الى ذلک الشيخ منصور على ناصف فى غاية المأمول على التاج الجامع للأصول فى الجزء الخامس وفى الصحيفة ثلاثمئة واحدى وستين .

سابعاً : إنّ بحث السيد الشهيد رضى الله عنه هو مقدمة لموسوعة ضخمة تتناول بالبحث الروائى مسألة المهدى ألّفها العلاّمة السيد محمد الصدر ، والسيد الشهيد رضى الله عنه عبّر عن أمله بالمؤلّف وبأنه اوفى المسالة حقّها ومن جميع جوانبها ، ولذا فلا مبرر للبحث الروائى عنده .

---

(۱) راجع ما نقله الشيخ عبد المحسن العباد فى بحثه المذكور سابقاً .

ص:۴۷

عملى فى التحقيق

أولاً : اعتمدت فى ضبط النمق على عذة طبعات ، وهى وإن كانت متقاربة ، ولا يوجد بينها اختلاف مهم ، إلاّ أننا أفدنا من مجموعها فى إخراج النصق بصور ؟ دقيقة ، والطبعات هى :

۱ ـ طبعة مكتبة النجاح طهران ، نشرت سنة ۱۹۷۸ م ، وفيها مقذمة قئمة للدكتور حامد حفنى داود.

٢ ـ طبعة دار التعارف ـ بيروت | الطبعة الثالثة ١٩٨١ م ، وفيها إشارة إلى أن البحث هو مقذمة كتبها الشهيد الصدر رضى الله عنه لكتاب الحجة السيد الصدر الموسوم بر (موسوعة الإمام المهدى) ، والتى أشار إليها الشهيد الصدر فى آخر البحث.

٣ ـ طبعة معاونية العلاقات الدولية فى منظمة الإعلام الإسلامى | الطبعة الأولى ـ طهران ١٩٨٦ م ، رفيها مقذمة قئمة للعلأمة الشيخ محمد على التسخيرى.

ثانياً : قمتُ بتخريج الآيات القرآنية من المصحف الشريف.

ثالثاً : خرّجت الروايات من مظانها المعتبرة ومن كتب الفريقين المعتمدة .

رابعاً : وثّقت الإحالات والأقوال التى ذى ها الإمام الشهيد بالرجوع إلى مصا د رها.

خامساً : كتبت تعليقات مناسبة فى الهامش إيضاحاً للإشارات والتنبيهات التى وردت فى البحث.

سادساً : ذكرث بعض النكات المهمة حيثما اقتضى الأمر ذلک فى ا الامش.

سابعاً : أضفنا بعض العناوين وحصرناها بين معقوفين ( ) .

ص:٤٨

ثامناً : هناک بعض الهوامش للشهيد الصدر علّمنا عليها بعلامة (الشهيد الصدر) .

ولا يسعنى فى الختام إلاّ أن أحمد الله تعالى على ما وفقنى إليه ، شاكراً لكل من أعاننى على إنجاز هذا التحقيق ونشره ، مع خالص الدعاء بالتوفيق لمركز الغدير للدراسات الإسلامية لقيامه بنشر هذا الكتاب .

والحمد لله أولاً وآخراً

الدكتور

عبدالجبار شرارة

قم المقدسة ۱۴۱۶ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

(ونريد أن نمنّ على الّذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين)

القصص : ۵

ص:۵۰

ص:۵۱

ص:٥٢

ص:٥٣

ليس المهدى تجسيداً لعقيدة إسلامية ذات طابع دينى فحسب ، بل هو عنوان لطموح ائحهت إليه البشرية بمختلف أديانهها ومذاهبها ، وصياغة لإلهام فطرى (١) ، أدرک الناس من خلاله ـ على الرغم من تنوع عقائدهم ووسائلهم إلى الغيب ـ أن للإنسانية يومأ موعوداً على الأرض ، تحقّق فيه رسالات السماء بمغزاها الكبير ، وهدفها النهائى ، وتجد فيه المسيرة المكدودة للإنسان على مز التاريخ استقرارها وطمأنينتها ، بعد عنا طويل. بل لم يقتصر الشعور بهذا اليوم الغيى والمستقبل المنتظر على المؤمنين دينياً بالغيب ، بل امتذ إلى غيرهم أيضاً وانعكس حتى على أشذ الإيديولوجيات والاتجاهات العقائدية رفضاً للغيب والغيبيات ، كالمادية الجدلية التى فشرت التاريخ على أساس التناقضات ، وآمنت بيوم موعود (٢) ، تصفّى

---

(١) إشارة إلى أن هذا ارتكاز فى ضمير الإنسانية ، واعتقاد سائد عند أغلب شعوب الأرض ، إذ هناک شعور قوىّ يخالجُ وجدان الإنسان بظهور المنقذ عندما تتعقد الأمور ، وتتعاظم المحنة ، وتدلهم الخطوب ، ويطبق الظلم ، وهو ما تبثر به الأديان ، ومجكيه تاريخ الحضارات الإنسانية. راجع : سيرة الأئمة الاثنى عثر | هاشم معروف الحسنى ٢ : ٥١۶ فما نقله عن الكتب والمصادر ، ومنها : نظرية الإمامة عند الشيعة | الدكتور أحمد محمود صبحى.

(٢) إشارة إلى معتقد الماركسيين وأمانيهم باليوم الموعود حيث ستسود الشيوعية ـ كما يعتقدون ـ آخر الأمر ويتوقف الصراع المرير استناداً إلى نظريتهم الشهيرة فى المادية التاريخية. راجع : فلسفتنا | الشهيد الصدرح! : ص ٢٦ فى عرض النظرية ومناقن!تها.

ص:٥٤

فيه كل تلك التناقضات ويسود فيه الوئام والسلام . وهكذا نجد أن التجربة النفسية لهذا الشعور التى مارستها الإنسانيه على مر الزمن ، من أوسع التجارب النفسية وأكثرها عموماً بين أفراد الإنسان.

وحينما يدعم الدين هذا الشعور النفسى العام ، ويؤكد أن الأرض فى نهاية المطاف ستمتلى قسطاً وعدلاً بعد أن ئيئت ظلما وجوراً (١) ، يعطى لذلك الشعور قيمته الموضوعية ويحوله إلى إيمان حاسم بمستقبل المسيرة الإنسانية ، وهذا الإيمان ليس مجرد مصدر للسلوة والعزاء فحسب ، بل مصدر عطاء وقوة. فهو مصدر عطاء ؟ لأن الإيمان بالمهدى إيمان برفض الظلم والجور حتى وهو يسود الدنيا كلها ، وهو مصدر قوة ودفع لا تنضب (٢) ؛ لأنه بصيص نور يقاوم اليأس فى نفس الإنسان ، ويحافظ على الأمل إلمشتعل فى صدره مهما ادالفت الخطوب وتعملق الظلم ؟ لأن اليوم الموعود يثبت أن بإمكان العدل أن يواجه عالماً مليئاً بالظلم والجور فيزعزع ما فيه من أركان الظلم ، ويقيم بناءه من جديد (٣) ، وأن الظلم مهما نجبز وامتذ فى أرجاء العالم وسيطر على مقذراته ، فهو حالة غير طبيعية ، ولا بذ أن يخهزم (٤) . وتلك ا الزيمة الكبرى المحتومة للظلم وهو فى قة مجده ، تضع الأمل كبيراً

---

(١) إشارة إلى الحديث الثريف المتواتر : «لو لم يبق من الدهر إلا يومٌ لبعث الله رجلاً من أهل بيتى يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً» . راجع : صحيح سنن المصطنى لأب داود ٢ : ٢٠٧ ، وراجع : التاج الجامع للأصول للشيخ منصور على ناصف ٥ : ٣٤٣.

(٢) هذا ردٌّ على من يزعم بأن العقيدة نى الإمام المهدى تورث الخمول والسلبية ، وهو أبلغ رد مستفاد من الحديث الشريف نفسه.

(٣) إشارة إلى دولة الإمام عليه السلام التى أشار إليها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ، راجع : التاج الجامع للأصول ٥ : ٣٤٣.

(۴) إشارة إلى الوعد الإلهى فى قوله تعالى : (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين) القصص : ۵ وأيضاً إشارة إلى قوله تعالى : (ليظهره على

ص:۵۵

أمام كل فرد مظلوم ، وكل أفة مظلومة ، فى القدرة على تغيير الميزان وإعادة البناء.

وإذا كانت فكرة المهدى أقدم من الإسلام وأوسع منه ، فإن معالمها التفصيلية التى حددها الإسلام جاءت أكز إشباعاً لكل الطموحات التى انشذت إلى هذه الفكرة منذ فجر التاريخ الدينى ، وأغنى عطاث وأقوى إثارة لأحاسيس المظلومين والمعذبين على مز التاريخ. وذلک لأن الإسلام حوّل الفكرة من غيب إلى واقع ، ومن مستقبل إلى حاضر ، ومن التطفع إلى منقذ تخمخض عنه الدنيا فى المستقبل البعيد المجهول إلى الإيمان بوجود المنقذ فعلاً ، وتطفعه مع المتطفعين إلى اليوم الموعود ، واكمال كل الظروف التى تسمح له بممارسة دوره العظجم. فلم يعد المهدى فكرة ننتظر ولادتهها ، ونبوءة نتطفع إلى مصداقها ، بل واقعاً قائماً ننتظر فاعليته ، وإنساناً معئناً يعيش بيننا بلحمه ودمه ، نراه ويرانا ، ويعيش مع آمالنا وآلامنا ، ويشاركنا أحزاننا وأفراحنا ، ويشمهد كل ما تزخر به الساحة على وجه الأرض من عذاب المعذبين وبؤس البائسين وظلم الظالمين ، ويكتوى بكل ذلک من قريب أو بعيد ، وينتظر بلهفة اللحظة التى يتاح له فيها أن يمذ يده إلى كل مظلوم ، وكل محروم (۱) ، وكل بائس ، ويقطع دابر الظالمين.

وقد فذر الذا القائد المنتظر أن لا يعلن عن نفسه ، ولا يكشف للآخرين

الدّين كلّه ولو كره المشركون) التوبة : ۳۳. راجع فى تفسير الآيتين الإشارة إلى المهدى عليه السلام ينابيع المودة | القندوزى الحنفى : ص ۴۵۰.

(۱) إشارة إلى بشارة الرسول الأعظم نبينا محمد صلى الله عليه وآله فى الحديث الشريف : لا إن فى أفتى المهدى ، يخرج يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً (الشک من الراوى) قال : قلنا : وما ذاک ؟ قال : سنين ، قال : فيجىء إليه الرجل فيقول يا مهدى أعطنى أعطنى قال : فيحثى له فى ثوبه ما استطاع أن يحمله ، رواه الترمذى. راجع : التاج الجامع للأصول | الشيخ منصور على ناصف ۵ : ۳۴۳ وفيه أكز من إشارة إلى كون الإمام المهدى موجود حى يعيش فى وسط الأفة ، وأن خروجه وعيشه ، سبع سنين يعنى ظهوره وقيام دولته المباركة التى فيها الخلاص والعدل.

حياته على الرغم من أنه يعيش معهم انتظاراً لفحظة الموعودة.

ومن الواضح أن الفكرة جمهذه المعالم الإسلامية ، تقرّب الهوّة الغيبية بين المظلومين كل المظلومين والمنقذ المنتظر ، وتجعل الجسر بينهم وبينه فى شعورهم النفسى قصيراً مهما طال الانتظار.

ونحن حيما يراد منا أن نؤمن بفكرة المهدى ، بوصفها تعبيراً عن إنسان حىّ محدد يعيش فعلاً كما نعيش ، ويترقب كما نترقب ، يراد الإمجاء إلينا بأن فكرة الرفض المطلق لكل ظلم وجور التى يمثلها المهدى ، تجشدت فعلاً فى القائد الرافض المنتظر ، الذى سيظهر وليس فى عنقه بيعة لظالم كما فى الحديث (١) ، وأن الإيمان به إيمان جمهذا الرفض الحى القائم فعلاً ومواكبة له.

وقد ورد فى الأحاديث الحث المتواعل على انتظار الفرج ، ومطالبة المؤمنين بالمهدى أن يكونوا بانتظاره. وفى ذلک تحقيق لتلک الرابطة الروحية ، والصلة الوجدانية بينهم وبين القائد الرافض ، وكل ما يرمز إليه من قيم ، وهى رابطة وصلة ليس بالإمكان إمجادها ما لم يكن المهدى قد تجشد فعلاً فى إنسان حىّ معاصر (٢) .

وهكذا نلاحظ أن هذا التجسيد أعطى الفكرة زخماً جديداً ، وجعل منها

---

(١) ورد عنه عليه السلام أنه سيظهر وليس فى عنقه بيعة لظالم ، راجع : الاحتجاج | الطبرسى ٢ : ٥٤٥ .

(٢) إشارة إلى أن (المهدى) ليس مجرد خفم أو فكرة ئداعب أفكار المظلومين وتناغى ضعورهم ، بل هو حقيقة حيّة مجشدة متشخصة فى ذات إنسان بعينه ، ومن هنا تكون الفكرة مُلامسة لوجدانهم ، يعيشون بها ، ويعيشون لها ، ويسهمون فى التحضير والتهيئة للالتحام فى المعركة الفاصلة التى سيقودها القائد المنتظر ، ولو كانت مجرد خلم أو فكرة ، فليس من المتوقع أن تكون مثل تلک الصلة الوجدانية والنعورية. ومن هنا تتأتى أهمّية الانتظار ، وتبين فلسفته وغاياته ، وهو فى جملته يتّسق مع حالة الترقب والإرهاص التى تسبق ظهور المنقذين من الأنبياء والمصلحين.

مصدر عطاء وقوة بدرجة أكبر ، إضافة إلى ما يجده أى إنسان رافض من سلوة وعزاء وتخفيف لما يقاسيه من آلام الظلم والحرمان ، حين يحسّ أن إمامه وقائده يشاركه هذه الآلام ويتحسّس بها فعلاً بحكم كونه إنساناً معاصراً ، يعيش معه وليس مجرد فكرة مستقبلية.

ولكن التجسيد المذكور أدى فى نفس الوقت إلى مواقف سلبية تجاه فكرة المهدى نفسها (١) لدى عدد من الناس ، الذين صعب عليهم أن يتصوروا ذلک ويفتر ضوه.

فهم يتساءلون !

إذا كان المهدى يعبّر عن إنسان حىّ ، عاصركل هذه الأجيال المتعاقبة منذ أكثر من عشرة قرون ، وسيظل يعاصر امتداداتها إلى أن يظهر على الساحة ، فكيف تأتى لهذا الانسان ان أن يعيش هذا العمر الطويل ، وينجو من قوانين الطبيعة التى تفرض على كل إنسان أن يمز بمرحلة الشيخوخة والهرم ، فى وقت سابق على ذلک جداً ، وتؤدى به تلک المرحلة طبيعياً إلى الموت ؟ أو ليس ذلک مستحيلاً من الناحية الواقعية ؟ (٢)

---

(١) اختلفت الآراء وتباينت المواقف من مسألة المهدى المنتظر ، تبعاً لاختلاف المواقف من مسألة الغيب الدينى والنصوص الدينية المشهورة والمتواترة ، على أن هناک إطباقاً بين علماء المسلمين والمحققين من أهل الحديث من السنة والشيعة على صحة العقيدة بالمهدى ، وعدم جواز التشكيک بها حتى جاء فى المأثور : «مَنْ أنْكَرَ المَهْدى فَقد كَفَر...» وقد استوفى هذه المسألة بحثاً الشيخ عبدالمحسن عباد فى محاضرته التى نثرتهأ مجلة الجامعة الإسلامية | العدد الثالث | ١٩٦٩ م. وراجع : غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول للشيخ منصور على ناصف ٥ : ٣٤٣.

(٢) هذا تساؤل فريق من الناس ، والواقع أنه يمكن تسجيل الملاحظة السريعة الآتية ، وإن كان سيأتى جوابه تفصيلاً :

ويتساءلون أيضاً !

لماذا كل هذا الحرص من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذا الإنسان بالذات ؟ فتعطّل من أجله القوانين الطبيعية (١) ، وئفعل المستحيل لإطالة عمره والاحتفاظ به لليوم الموعود ، فهل عقمت البشرية عن إنتاج القادة الأكفاء ؟ ولماذا لا يترك اليوم الموعود لقائد يولد (٢) مع فجر ذلک اليوم ، وينمو كما ينمو الناس ، ويمارس دوره بالتدريج حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلما وجوراً ؟

ويتساءلون أيضاً !

إذا كان المهدى اسما لشخص محدّد هو ابن الإمام الحادى عشر (٣) من أئمة

أ ـ إنه ليس مستحيلاًبالمعنى المنطتى ، بل هوفى دائرة الإمكان.

ب ـ إنه ليس مستحيلاً عادة ؟ لوقوع نظائر ذلک فعلاً كما نصّ القرآن الكريم فى مسألة نوح عليه السلام فى قوله تعالى : (فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاّ خَمْسِينَ عَاماً) العنكبوت : ١۴.

(١) إن تعطيل القوانين الطبيعية قد حدث مراراً بالنسبة إلى معاجز الأنبياء عليهم السلام ، وهذا أمز ضرورى من الدين لا مجال لنكرانه فإذا أخبر بذلک من وجبت تصديقه جاز بلا خلاف.

(٢) هذا إشارة إلى عقيدة طوائف من إخواننا أهل السنّة. راجع : التاج الجامع للأصول ۵ : ٣۶٠ ا الامثى.

(٣) هذا التساؤل أثير من قبل ويثار اليوم ، بأساليب مختلفة ، وكلها تستند إلى موهومات وافتراضات لا تقوم على أساس من العلم ، بل هى مجرد تشكيكات ، ومحاولات بائسة للفرار من أصل القضية ولوازمها الضرورية ، فهى لا تعدو أن تكون أشبه بتشكيكات الماديين عندما جوبهوا بأدلة العقل والمنطق والعلم فما يتعلق بالله تعالى ، فلجأوا إلى تساؤلات ساذجة تحكى عدم إيمانهم بما قامت عليه الأدلة الوفيرة ، نظير قولهم : لو كان موجوداً فلماذا لا نراه ؟ ولماذا لايفعل كذا وكيت ؟

وهكذا شأن هؤلاء ، فعندما جوبهوا بالأدلة المنطقية والروايات المتواترة فى مسألة المهدى المنتظر مما أطبق عليه الخاص والعام وبما لايسع المرء إنكاره ، لجأوا إلى التشكيک فى أنه لم يعرف

أهل البيت عليهم السلام الذى ولد سنة (٢٥٦ هـ) (١) وتوفى أبوه سنة (٢٦٠ هـ) ، فهذا يعنى أنه كان طفلاً صغيراً عند موت أبيه ، لا يتجاوز خمس سنوات وهى سن لا تكفى للمرور بمرحلة إعداد فكرى ودينى كامل على يد أبيه ، فكيف وبأى طريقة يكتمل إعداد هذا الشخص(٢) لممارسة دوره الكبير ، دينياً وفكرياً وعلمياً ؟

ويتساءلون أيضاً!

إذا كان القائد جاهزاً ، فلماذا كلّ هذا الانتظار الطويل مئات السنين ؟

أوَليس فى ما شهده العالم من المحن والكوارث الاجتماعية ما يبرّر

---

(١) لقد أثبت الشيخ المفيد فى الإرشاد : ص ٣٤٦ ، والشيخ السعران فى اليواقيت والجواهر ج ٢ | المبحث ٦٥ ، ولادة محمد بن الحسن العسكرى فى عام ٢٥٥ هـ ، وهما من أجلة المحققين لدى الفريقين ، وهذا ما يدحض التشكيكات التى يثيرها بعض أدعياء العلم ، فضلاً على ما يقتضيه الحديث المتواتر : لأ الأئمة اثنا دثر كلهم من قريش ؟ ، فهو لايستقيم إلأ بما تقرر لدى الإمامية ، وبما التزموا به من إمامة اثنى عشر إماماً كلهم من العترة الطاهرة ، أوالم الإمام على ابن أب طالب عليه السلام ، وآخرهم المهدى . وهؤلاء هم المنصوص عليهم ، ويدعم ذلک ويشهد له حديث الثقلين المتواتر ، وحديث من مات لايعرف إمام زمانه ، فهما لايستقيمان إلا على عقيدة الإمامية الاثنى عشرية . راجع مناقشة وافية فى : الأصول العامة للفقه المقارن | العلامة محمد تقى الحكيم | بحث حجية السنّة : ص ١٤٥ وما بعدها.

(٢) إن الذى تعهّد وتكفل بإعداد النبى عيسى عليه السلام ، ووهب النبى يحبى الحكم والحكة وهو صبىّ ، كما صرّح القرآن ، يمكن أن يتعهّد ويتكفل بمن أعدّه لتطهير الأرض من الظلم والجور فى آخر الزمان ، كما هو نمق الخبر المتواتر فى المهدى الزى هو من عترة فاطمة وذرية الحسين عليه السلام . راجع : التاج الجامع للأصول ٥ : ٣٤١ ـ ٣٤٣.

بروزه (١) على الساحة وإقامة العدل على الأرض ؟

ويتساءلون أيضاً!

كيف نستطيع أن نؤمن بوجود المهدى ، حتى لو افترضنا أن هذا ممكن ؟ وهل يسوغ لإنسان أن يعتقد بصحة فرضية من هذا القبيل دون أن يقوم عليها دليل علمى أوشرعى قاطع ؟ (٢) وهل تكفى بضع روايات تنقل عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا نعلم مدى صحتها (٣) للتسليم بالفرضية المذكورة ؟

ويتساءلون أيضاً بالنسبة إلى ما أعدّ له هذا الفرد من دور فى اليوم الموعود!

كيف يمكن أن يكون للفرد هذا الدور العظيم الحاسمم فى حياة العالم ؟! مع أن الفرد مهما كان عظيما لا يمكنه أن يصنع بنفسه التاريخ ، ويدخل به مرحلة جديدة ، وإنما تختمر بذور الحركة التاريخية وجذوتها فى الظروف الموضوعية وتناقضاتها ، وعظمة الفرد (٤) هى التى ترشحه لكى يشكل الواجهة لتلك الظروف الموضوعية ، والتعبير العملى عما تتطلبه من حلول ؟

---

(١) إن هذه المسألة مرهونة باشتراطاتها الخاصة ، وكما تأخر النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى زمن ظهوره المبارک لحكم وامور اقتضتها حكمة المرسل (الله) تعالى على رغم الاحتياج إليه ، فكذا الأمر هنا.

(٢) سيناقش الشهيد الصدر هذه المسألة تفصيلاً.

(٣) الواقع ـ وكا سيأتى ـ أنّ علماء الأمة الإسلامية أجمعوا على صحة أحاديث المهدى عليه السلام ، ولم يشذ إلا من هو ليس من أهل المعرفة بالحديث. راجع : التاج الجامع للأصول ٥ : ٣٦١.

(٤) لقد رأينا كيف صنع (الأبطال) تاريخ أممهم ، على أن الشهيد الصدر قدس سره هنا يقدّم فهما أصيلاً ومهما جداً لحركة التاريخ ودور الفرد البطل ، وأمية الظروف الموضوعية فى التأثير. وقد أشار توماس كارليل فى كتابه (الأبطال) إلى دور البطل. راجع كتابه المذكور ، ترجمة الدكتور السباعى ـ مصر ـ سلسلة الألف كتاب.

ويتساءلون أيضاً!

ما هى الطريقة التى يمكن أن نتصور من خلالها ما سيتمُّ على يد ذلک الفرد من تحوّل هائل وانتصار حاسم للعدل ورسالة العدل على كل كيانات الظلم والجور والطغيان ، على الرغم مما تملک من سلطان ونفوذ ، وما يتواجد لديها من وسائل الدمار والتدمير ، وما وصلت إليه من المستوى الهائل فى الإمكانات العلمية والقدرة السياسية والاجتماعية والعسكرية ؟ (١)

هذه أسئلة قد تتردد فى هذا المجال وتقال بشكل وآخر ، وليست البواعث الحقيقية لهذه الأسئلة فكرية فحسب ، بل هناك مصدر نفسى لها أيضاً ، وهو الشعور بهيبة الواقع المسيطر عالمياً ، وضآلة أى فرصة لتغييره من الجذور ، وبقدر ما يبعثه الواقع الذى يسود العالم على مز الزمن من هذا الشعور ، تتعمق الشكوك وتترادف التساؤلات. وهكذا تؤدى الهزيمة والضآلة والشعور بالضعف لدى الإنسان إلى أن يحسّ نفسياً بإرهاق شديد ، لمجرد تصور عملية التغيير الكبرى للعالم التى تفرغه من كل تناقضاته ومظالمه التاريخية ، وتعطيه محتوىً جديداً قائماً على أساس الحق والعدل ، وهذا الإرهاق يدعوه إلى التشكك فى هذه الصورة ومحاولة رفضها لسبب وآخر.

ونحن الآن نأخذ التساؤلات السابقة تباعاً ؟ لنقف عند كل واحد منها وقفة قصيرة بالقدر الذى تتسع له هذه الوريقات.

---

(١) فى هذا إشارة إلى أسلحة الدمار (الشامل) فضلاً عن التطور التكنولوجى الذى شمل وسائل الإعلام المرئية والمسموعة وتأثيراتها الهائلة. إلاّ أننا شهدنا كيف توجد بالمقابل الأسلحة المضادة التى كثيراً ما تعطّل تلك التأثيرات ، وكذلك رأينا تأثير المعنويات فى إبطال مفعول أسلحة الخصم المختلفة أو التقليل من آثارها إلى حدّ كبير جداً ، كما حدث فى الثورات والانتفاضات الشعبية.

(المبحث الأوّل)

كيف تأتّى للمهدى

هذا العمر الطويل ؟

ص:٦٤

ص:٦٥

هل بالإمكان أن يعيش الإنسان قروناً كثيرة كما هو المفترض فى هذا القائد المنتظر لتغيير العالم ، الذى يبلغ عمره الشريف فعلاً أكثر من ألف ومائة وأربعين سنة ، أى حوالى (١٤) مرة بقدر عمر الإنسان الاعتيادى الذى يمرّ بكل المراحل الاعتيادية من الطفولة إلى الشيخوخة ؟

كلمة الإمكان هنا تعنى أحد ثلاثة معانى : الإمكان العملى ، والإمكان العلمى ، والإمكان المنطقى أو الفلسفى .

وأقصد بالإمكان العملى : أن يكون الشىء ممكناً على نحو يتاح لى أو لك ، أو لإنسان آخر فعلاً أن يحققه ، فالسفر عبر المحيط ، والوصول إلى قاع البحر ، والصعود إلى القمر ، أشياء أصبح الا إمكان عملى فعلاً . فهناك من يمارس هذه الأشياء فعلاً بشكل وآخر (١) .

وأقصد بالإمكان العلمى : أن هناك أشياء قد لا يكون بالإمكان عملياً لى أو لك ، أن تُمارسها فعلاً بوسائل المدنية المعاصرة ، ولكن لا يوجد لدى العلم ولا

---

(١) ولم تكن مثل هذه الأمور بمتصورة سابقاً قبل وقوعها ، ولو حَدّثَ بها أحد من الناس قبل تحققها فعلاً لعدّ الحديث مجرد تخيلات وأوهام.

تشير اتجاهاته المتحركة إلى ما يبرر رفض إمكان هذه الأشياء ووقوعها وفقاً لظروف ووسائل خاصة ، فصعود الإنسان إلى كوكب الزهرة لا يوجد فى العلم ما يرفض وقوعه ، بل إن اتجاهاته القائمة فعلاً تشير إلى إمكان ذلك ، وإن لم يكن الصعود فعلاً ميسوراً لى أو لك ؟ لأن الفارق بين الصعود إلى الزهرة والصعود إلى القمر ليس إلاّ فارق درجة ، ولا يمثل الصعود إلى الزهرة إلاّ مرحلة تذليل الصعاب الإضافية التى تنشأ من كون المسافة أبعد ، فالصعود إلى الزهرة ممكن علمياً وإن لم يكن ممكناً عملياً فعلاً (١) . وعلى العكس من ذلك الصعود إلى قرص الشمس فى كبد السماء فإنه غير ممكن علمياً ، بمعنى أن العلم لا أمل له فى وقوع ذلك ، إذ لا يتصور علمياً ، وتجريبياً إمكانية صنع ذلك الدرع الواقى من الاحتراق بحرارة الشمس ، التى تمثل أتوناً هائلاً مستعراً بأعلى درجة تخطر على بال إنسان.

وأقصد بالإمكان المنطقى أو الفلسفى : أن لا يوجد لدى العقل وفق ما يدركه من قوانين قَبْلية ـ أى سابقة على التجربة ـ ما يبرر رفض الشىء والحكم باستحالته .

فوجود ثلاث برتقالات تنقسم بالتساوى وبدون كسر إلى نصفين ليس له إمكان منطقى ؟ لأن العقل يدرك ـ قبل أن يمارس أى تجربةـ أن الثلاثة عدد فردى وليس زوجاً ، فلا يمكن أن تنقسم بالتساوى ؟ لأن انقسامها بالتساوى يعنى كونها زوجاً ، فتكون فرداً وزوجاً فى وقت واحد ، وهذا تناقض ، والتناقض مستحيل منطقياً. ولكن دخول الإنسان فى النار دون أن يحترق ، وصعوده للشمس دون أن تحرقه الشمس بحرارتها ليس مستحيلاً من الناحية المنطقية ، إذ لا تناقض فى

(١) الكلام فى وقته دقيق علمياً ، فهو يقول : إنه ممكن علمياً ، ولكنه لم يكن قد تحقق فعلاً ، والواقع أن كثيراً من الإنجازات فى عالم الفضاء ، وتسيير المركبات الفضائية إلى كواكب وتوابع الأرض وغيرها قد أصبح حقائق فى أواخر القرن العشرين.

افتراض أن الهرارة لا تتسرب من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة ، وإنما هو مخالف للتجربة التى أثبتت تسرب الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة إلى أن يتساوى الجسمان فى الحرارة.

وهكذا نعرف أن الإمكان المنطقى أوسع دائرة من الإمكان العلمى ، وهذا أوسع دائرة من الإمكان العملى.

ولا شذ فى أن امتداد عمر الإنسان آلاف السنين ممكن منطقياً ؟ لأن ذلک ليس مستحيلاً من وجهة نظر عقلية تجريدية ، ولا يوجد فى افتراض من هذا القبيل أى تناقض ؟ لأن الحياة كمفهوم لا تستبطن الموت السريع ، ولا نقاش فى ذلک.

كما لا شکّ أيضاً ولا نقاش فى أن هذا العمر الطويل ليس ممكناً إمكاناً عملياً ، على نحو الإمكانات العملية للنزول إلى قاع البحر أو الصعود إلى القمر ، ذلک لأن العلم بوسائله وأدواته الحاضرة فعلاً ، والمتاحة من خلال التجربة البشرية المعاصرة ، لا تستطيع أن تمدد عمر الإنسان مئات السنين ، ولهذا نجد أن أكثر الناس حرصاً على الحياة وقدرة على تسخير إمكانات العلم ، لا يحتاح لهم من العمر إلاّ بقدر ما هو مألوف.

وأما الإمكان العلمى فلا يوجد عملياً اليوم ما يبرر رفض ذلک من الناحية النظرية (١). وهذا بحث يتصل فى الحقيقة بنوعية التفسير الفسلجى لظاهرة الشيخوخة والهرم لدى الإنسان ، فهل تعبز هذه الظاهرة عن قانون طبيعى يفرض على أنسجة جسم الإنسان وخلاياه ـ بعد أن تبلغ قمة نموها ـ أن تتصلب بالتدريج

---

(١) نعم ، لا يوجد مبرر علمى واحد يرفض هذه النظرية ، بل إن علماء الطبّ منشغلون فعلاً بمحاولات حثيثة لإطالة عمر الإنسان ، وإن هناک عشرات التجارب التى تتممّ فى هذا المجال ، وذلک وحده ينهض دليلاً قوياً على الإمكان النظرى أو العلمى.

ص:٦٨

وتصبح أقل كفاءة للاستمرار فى العمل ، إلى أن تتعطل فى لحظة معينة ، حتى لو عزلناها عن تأثير أى عامل خارجى ؟ أو أن هذا التصلب وهذا التناقص فى كفاءة الأنسجة والخلايا الجسمية للقيام بأدوارها الفسيولوجية ، نتيجة صراع مع عوامل خابىجية كالميكروبات أو التسمم الذى يتسرب إلى الجسم من خلال ما يتناوله من غذاء مكثف ؟ أو ما يقوم به من عمل مكثف أو أى عامل آخر ؟

وهذا سؤال يطرحه العلم اليوم على نفسه ، وهو جاد فى الإجابة عنه ، ولا يزال للسؤال أكثر من جواب على الصعيد العلمى.

فإذا أخذنا بوجهة النظر العلمية التى تتجه إلى تفسير الشيخوخة والضعف الهرمى ، بوصفه نتيجة صراع واحتكاك مع مؤثرات خارجية معينة ، فهذا يعنى أن بالإمكان نظرياً ، إذا عُزلت الأنسجة التى يتكون منها جسم الإنسان عن تلك المؤثرات المعيّنة ، أن تمتد بها الحياة وتتجاوز ظاهرة الشيخوخة وتتغلب عليها نهائياً.

وإذا أخذنا بوجهة النظر الأخرى ، التى تميل إلى افتراض الشيخوخة قانوناً طبيعياً للخلايا والأنسجة الحيّة نفسها ، بمعنى أنها تحمل فى أحشائها بذرة فنائها المحتوم ، مروراً بمرحلة الهرم والشيخوخة وانتهاءً بالموت.

أقول :

إذا أخذنا بوجهة النظر هذه ، فليس معنى هذا عدم افتراض أى مرونة فى هذا القانون الطبيعى ، بل هو ـ على افتراض وجوده ـ قانون مرن ؛ لأننا نجد فى حياتنا الاعتيادية ؟ ولأن العلماء يشاهدون فى مختبراتهم العلمية ، أن الشيخوخة كظاهرة فسيولوجية لا زمنية ، قد تأتى مبكرة ، وقد تتأخر ولا تظهر إلاّ فى فترة متأخرة ، حتى إن الرجل قد يكون طاعناً فى السن ولكنه يملك أعضاء لينة ، ولا

تبدو عليه أعراض الشيخوخة كما نصّ على ذلک الأطباء (١) . بل إن العلماء استطاعوا عملياً أن يستفيدوا من مرونة ذلک القانون الطبيعى المفترض ، فأطالوا عمر بعض الحيوانات مئات المرات بالنسبة إلى أعمارها الطبيعية ؟ وذلک بخلق ظروف وعوامل تؤجل فاعلية قانون الشيخوخة .

وبهذا يثبت عملياً أن تأجيل هذا القانون بخلق ظروف وعوامل معيّنة أمر ممكن عملياً ، ولئن لم يتح للعلم أن يمارس فعلاً هذا التأجيل بالنسبة إلى كائنٍ معقد معين كالإنسان ، فليس ذلک إلاّ لفارق درجة بين صعوبة هذه الممارسة بالنسبة إلى الإنسان وصعوبتها بالنسبة إلى أحياءٍ أخرى . وهذا يعنى أن العلم من الناحية النظرية وبقدر ما تشير إليه انجاهاته المتحركة لا يوجد فيه أبداً ما يرفض إمكانية إطالة عمر الإنسان ، سواء فشرنا الشيخوخة بوصفها نتاج صراع واحتكاک مع مؤثرات خارجية أو نتاج قانون طبيعى للخليّة الحيّة نفسها يسير بها نحو الفناء.

ويتلخص من ذلک : أن طول عمر الإنسان وبقاءه قروناً متعددة أمر ممكن منطقياً وممكن عملياً ، ولكنه لا يزال غير ممكن عملياً ، إلاّ أن اتجاه العلم سائر فى طريق تحقيق هذا الإمكان عبر طريق طويل.

وعلى هذا الضوء نتناول عمر المهدى عليه الصلاة والسلام وما أحيط به من استفهام أو استغراب ، ونلاحظ :

إنه بعد أن ثبت إمكان هذا العمر الطويل منطقياً وعلمياً ، وثبت أن العلم

---

(١) يؤكد الأطباء والدراسات الطبية على هذه الملاحظة ، وأن لديهم مشاهدات كثيرة فى هذا المجال ، ولعل هذا هو الذى دفعهم إلى إجراء محاولات وتجارب لإطالة العمر الطبيعى للإنسان ، وكالمعتاد كان مسرح التجربة فى البداية هى الحيوانات لميسورية ذلک ، وعدم وجود محاذير اخرى تمنع إجراء مثل تلک التجارب على الإنسان .

سائر فى طريق تحويل الإمكان النظرى إلى إمكان عملى تدريجاً ، لا يبقى للاستغراب محتوىً إلاّ استبعاد أن يسبق المهدى العلم نفسه ، فيتحول الإمكان النظرى إلى إمكان عملى فى شخصه قبل أن يصل العلم فى تطوره إلى مستوى القدرة الفعلية على هذا التحويل ، فهو نظير من يسبق العلم فى اكتشاف دواء ذات السحايا أو دواء السرطان.

وإذا كانت المسألة هى أنه كيف سبق الإسلام ـ الذى صمّم عمر هذا القائد المنتظر ـ حركة العلم فى مجال هذا التحويل ؟

فالجواب : أنه ليس ذلک هو المجال الوحيد الذى سبق فيه الإسلام حركة العلم.

أوليست الشريعة الإسلامية ككل قد سبقت حركة العلم والتطور الطبيعى للفكر الإنسانى قروناً عديدة ؟ (١)

أوَلم تناد بشعارات طرحت خططاً للتطبيق لم ينضج الإنسان للتوصل إليها فى حركته المستقلة إلاّ بعد مئات السنين ؟

أوَلم تأت بتشريعات فى غاية الحكة ، لم يستطع الإنسان أن يدرک أسرارها ووجه الحكة فيها إلاّ قبل برهة وجيزة من الزمن ؟

أوَلم تكشف رسالة السماء أسراراً من الكون لم تكن تخطر على بال إنسان ، ثم

---

(١) هذه التساؤلات التى يثيرها السيد الشهيد رضى الله عنه تهدف إلى ترسيخ حقيقة مهمة ، هى أن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم عندما بشر (بالمهدى) ، وهو حالة غير اعتيادية فى سياق البشرية ، تنبئ فى جملتها عن تسجيل سبقٍ فى الإمكانية العملية ، بحد تأكيد الإمكانية العلمية ، أى لبقاء الإنسان مدة أطول بكثير من المعتاد ، فإن مثل هذا السبق فى التنبيه على حقائق نى هذا الوجود كان قد سجّله القرآن والحديث الشريف فى موارد كثيرة جداً فى مسائل الطبيعة والكون والحيا ة. راجع : القرآن والعلم الحديث | الدكتور عبدالرزاق نوفل .

جاء العلم ليثبتها ويدعمها ؟

فإذا كنا نؤمن بهذا كله ، فلماذا نستكثر على مرسل هذه الرسالة ـ سبحانه وتعالى ـ أن يسبق العلم فى تصميم عمر المهدى ؟ (١) وأنا هنا لم أتكلم إلاّ عن مظاهر السبق التى نستطيع أن نحسّها نحن بصورة مباشرة ، ويمكن أن نضيف إلى ذلک مظاهر السبق التى تحدثنا بها رسالة السماء نفسها.

ومثال ذلک أنها تخبرنا بأن النبی صلی الله علیه وآله وسلم قد أسری به لیلاً من المسجد الحرام إلی المسجد الأقصی ، وهذا الإسراء (٢) إذا أردنا أن نفهمه فی إطار القوانین الطبیعیة ، فهو یعبز عن الاستفادة من القوانین الطبیعیة بشکل لم یتح للعلم أن یُحقّقه (٣) إلاّ بعد مئات السنین ، فنفس الخبرة الربانیة التی أتاحت للرسول صلی الله علیه وآله وسلم التحرک السریع قبل أن یتاح للعلم تحقیق ذلک ، أتاحت لآخر خلفائه المنصوصین العمر المدید ، قبل أن یتاح للعلم تحقیق ذلک.

نعم ، هذا العمر المدید الذی منحه الله تعالی للمنقذ المنتظر یبدو غریباً فی

---

(١) إشارة إلی أن هذا من قبیل الإعجاز أیضاً ، وهو إفاضة ربانیة خاصة ، وهذا أمر لا یسع المسلم إنکاره ، بعد أن أخبرت بأمثا له الکتب السماویة ، وبالأخص القرآن ، کالذی ورد فی شأن عمر النی نوح علیه السلام ، وکذا ما أخبر به القرآن من المغیبات الأخری ، علی أن کثیراً من أهل السنّة ومن المتصوفة وأهل العرفان یؤمنون بوقوع الکرامات ومایشبه المعجزات للأولیاء والصلحاء والمقزبین من حضرة المولی تعالی. راجع : التصوف والکرامات | الشیخ محمد جواد مغنیة . وراجع : التاج الجامع للأصول ٥ : ٢٢٨ | کتاب الزهد والرقائق ـ الذین تکلموا فی المهد.

(٢) إشارة إلی الآیة المبارکة : (سُبْحَانَ الَّذی أَسْرَی بِعَبدِهِ لَیْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَی الْمَسْجِدِ الأَقْصَی ...) الإسراء : ١ .

(٣) إشارة إلی تصمیم المرکبات الفضانیة ، ورکوب الفضاء والتوغل إلی مسافات بعیدة عن أرضنا ، وقطعها فی ساعات أو أیام معدودة ، وقد أضحت هذه حقائق فی حیاتنا المعاصرة فی أواخر القرن العشرین.

حدود المألوف حتی الیوم فی حیاة الناس ، وفی ما أنجز فعلاً من تجارب العلما ،.

ولکن!

أو لیس الدور التغییری الحاسم الذی أُعدّ له هذا المنقذ غریباً فی حدود المألوف فی حیاة الناس ، وما مزت جمعهم من تطورات التاریخ ؟

أو لیس قد أنیط به تغییر العالم ، وإعادة بنائه الحضاری من جدید علی أساس الحق والعدل ؟

فلماذا نستغرب إذا اتّسم التحضير لهذا الدور الكبير ببعض الظواهر الغريبة والخارجة عن المألوف كطول عمر المنقذ المنتظر ؟ فإن غرابة هذه الظواهر وخروجها عن المألوف مهما كان شديداً ، لا يفوق بحال غرابة نفس الدور العظيم الذى يجب على اليوم الموعود إنجازه. فإذا كنا نستسيغ ذلک الدور الفريد (١) تاريخياً على الرغم من أنه لا يوجد دور مناظر له فى تاريخ الإنسان ، فلماذا لا نستسيغ ذلک العمر المديد الذى لا نجد عمراً مناظراً له فى حياتنا المألوفة ؟

ولا أدرى!

هل هى صدفة أن يقوم شخصان فقط بتفريغ الحضارة الإنسانية من محتواها الفاسد وبنائها من جديد ، فيكون لكل منهما عمر مديد يزيد على أعمارنا الاعتيادية أضعافاً مضاعفة ؟

أحدهما مارس دوره فى ماضى البشرية وهو النبى نوح ، الذى نصّ القرآن

---

(١) إشارة إلى ما أعذ للإمام المهدى المنتظر من دور ومهمة تغييرية على مستوى الوجود الإنسانى برمته كما يشير الحديث الصحيح : «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلما وجوراً» ، وهذا الدور وهذه المهمة عليها الإجماع بين علماء الإسلام ، والاختلاف حصل فى أمور فرعية. ومن هنا كان التساؤل الذى أثاره السيد الشهيد رضى الله عنه له مبرر منطقى قوى.

الكريم (١) على أنه مكث فى قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً ، وقدّر له من خلال الطوفان أن يبنى العالم من جديد .

والآخر يمارس دوره فى مستقبل البشرية وهو المهدى الذى مكث فى قومه حتى الآن أكثر من ألف عام وسيقدّر له فى اليوم الموعود أن يبنى العالم من جديد .

فلماذا نقبل نوح الذى ناهز ألف عام على أقل تقدير ولا نقبل المهدى ؟ (٢)

---

(١) فى الآية المباركة : (فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاّ خَمْسِينَ عَاماً) العنكبوت : ١۴.

(٢) السؤال موجّه إلى المسلمين المؤمنين بالقرآن الكريم وبالحديث النبوى الشريف ، وقد روى علماء السنّة لغير نوح ما هو أكثر من ذلک. راجع تهذيب الأسماء واللغات | النووى ١ : ١٧۶ ، ولايصخ أن يشكل أحد بأن ذاک أخبر به القرآن فالنمق قطعى الثبوت ، وهو يتعلق بالنبى المرسل نوح عليه السلام ، أما هنا فليس لدينا نصّ قطعى ، ولا الأمر متعلق بنبىّ .

والجواب : أن المهمة أولاً واحدة ، وهى تغيير الظلم والفساد ، وأن الوظيفة كما أوكلت إلى النبى ، فقد اوكلت هنا إلى من اختاره الله تعالى أيضاًكما هو لسان الروايات الصحيحة. قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : « لَوْ لَمْ يَبقْ مِنَ الدنيا إلاّ يومٌ لطوّل اللهُ ذلک اليَوم حتّى يَبعثَ رَجُلاً مِنْ أهلِ بيتى يملأ الأرضَ قِسْطاً وَعدلاً ...» التاج الجامع للأصول ۵ : ٣۴٣ .

وأما من جهة قطعية النص ، فأحاديث المهدى بلغت حدّ التواتر ، وهو موجب للقطع والعلم ، فلا فرق فى المقامين. راجع : التاج الجامع للأصول ۵ : ٣۴١ و ٣۶٠ فقد نقل التواتر عن الشوكانى ، وانتهى المحققون من علماء الفريقين إلى القول بأنّ من كفر بالمهدى فقد كفر بالرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم وليس ذلک إلاّ بلحاظ أنه ثبت بالتواتر ، وأنه من ضرورات الدين ، والمنكر لذلک كافر إجماعاً . وراجع : الإشاعة لأشراط الساعة | البرزنجى فى بحثه حول المهدى . وقد نقلنا حكاية التواتر فى المقدمة أيضاً.

(المبحث الثانى)

المعجزة والعمر الطويل

ص:٧٧

وقد عرفنا حتى الآن أنّ العمر الطويل ممكن علمياً ، ولكن لنفترض أنه غير ممكن علمياً ، وانّ قانون الشيخوخة والهرم قانون صارم لا يمكن للبشرية اليوم ، ولا على خطها الطويل ان تتغلب عليه ، وتغير من ظروفه وشروطه ، فماذا يعنى ذلک ؟ إنّه يعنى أنّ إطالة عمر الإنسان ـ كنوحٍ أو كالمهدى ـ قروناً متعددة ، هى على خلاف القوانين الطبيعية التى أثبتها العلم بوسائل التجربة والاستقراء الحديثة ، وبذلک تصبح هذه الحالة معجزة عطلت قانوناً طبيعياً فى حالة معينة للحفاظ على حياة الشخص الذى أنيط به الحفاظ على رسالة السماء ، وليست هذه المعجزة فريدة من نوعها ، او غريبة على عقيدة المسلم المستمدة من نصّ القرآن والسنّة (١) ، فليس قانون الشيخوخة والهرم أشدّ صرامة من قانون انتقال الحرارة من الجسم الأكثر حرارة إلى الجسم الأقل حرارة حتى يتساويا ، وقد عطّل هذا القانون لحماية حياة أبراهيم عليه السلام حين كان الأسلوب الوحيد للحفاظ عليه تعطيل ذلک القانون . فقيل للنار حين ألقى فيها إبراهيم (قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم) أنبياء : ٦٩ ، فخرج منها كما دخل سليماً لم يصبه أذىً ، إلى كثير من القوانين الطبيعية التى عطّلت

---

(١) أى أنّ الأمر يصبح من قبيل المعجز ، وهو ما نطق به القرآن ، وجاء فى صحيح السنّة المطهرة ، والإعجاز حقيقة رافقت دعوة الأنبياء ، وادّعاء سفارتهم عن الحضرة الإلهية ، وهو ما لا يسع المسلم إنكاره أو الشک فيه ، بل إنّ غير المسلم يشارک المسلم فى الاعتقادات بالمعجزات .

ص:٧٨

لحماية أشخاص من الأنبياء وحجج الله على الارض ، ففلق البحر لموسى (١) ، وشبّه للرومان أنهم قبضوا على عيسى (٢) ولم يكونوا قد قبضوا عليه ، وخرج النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم من داره وهى محفوفة بحشود قريش التى ظلّت ساعات

تتربص به لتهجم عليه ، فستره الله تعالى عن عيونهم وهو يمشى بينهم (٣) . كلّ هذه الحالات تمثل قوانين طبيعية عطّت لحماية شخص ، كانت الحكمة الربانية تقتضى الحفاظ على حياته ، فليكن قانون الشيخوخة والهرم من تلك القوانين .

وقد يمكن ان نخرج من ذلک بمفهوم عام وهو انه كلّما توقف الحفاظ على حياة حجة الله فى الارض على تعطيل قانون طبيعى ، وكانت إدامة حياة ذلک الشخص ضرورية لإنجاز مهمته التى أُعدّ لها ، تدخلت العناية الربانية فى تعطيل ذلک القانون لإنجاز ذلک ، وعلى العكس اذا كان الشخص قد انتهت مهمته التى أُعِدّ لها ربانياً فإنه سيلقى حتفه ويموت أو يستشهد وفقاً لما تقرره القوانين الطبيعية .

ونواجه عادة بمناسبة هذا المفهوم العام السؤال التالى :كيف يمكن ان يتعطل القانون (٤) ؟ وكيف تنفصم العلاقة الضرورية التى تقوم بين الظواهر الطبيعية ؟ وهل هذه إلاّ مناقضة للعلم الذى اكتشف ذلک القانون الطبيعى ، وحدّده هذه العلاقة

---

(١) إشارة الى قوله تعالى : (فَأَوْحُيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِعَصَاکَ البَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) الشعراء : ٦٣ .

(٢) إشارة الى قوله تعالى : (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ...) النساء : ١٥٧ .

(٣) راجع : سيرة ابن هشام ٢ : ١٢٧ ، فقد نقل هذه الحادثة وهى مجمعٌ عليها .

(٤) قد يقال : إنّ القانون بصفته قانوناً لابدّ أن يطّرد ، ولا يتصور التعطيل والانخرام ، وقد لاحظ بعضهم أنّ الانخرام إنما هو بقانون آخر ، كما هو الأمر بالنسبة إلى قانون الجاذبية ، الذى يستلزم جذب الأشياء الى المركز ، ومع ذلک فإنّ الماء يصعد بعملية الامتصاص فى النباتات من الجذر إلى الأعلى بواسطة الشعيرات ، وهذا بحسب قانون آخر هو (الخاصية الشعرية) . راجع : القرآن محاولة لفهم عصرى | الدكتور مصطفى محمود .

الضرورية على أسس تجريبية واستقرائية ؟!

والجواب : أنّ العلم نفسه قد أجاب عن هذا السؤال بالتنازل عن فكرة الضرورة فى القانون الطبيعى ، وتوضيح ذلک : إنّ القانون الطبيعية يكتشفها العلم على اساس التجربة والملاحظة المنتظمة ، فحين يطّرد وقوع ظاهرة طبيعية عقيب ظاهرة أخرى يستدل بهذا الاطّراد على قانون طبيعى ، وهو أنه كلّما وجدت الظاهرة الاولى وجدت الظاهرة الثانية عقيبها ، غير أنّ العلم لا

يفترض فى هذا القانون الطبيعى علاقة ضرورية بين الظاهرتين نابعة من صميم هذه الظاهرة وذاتها ، وصميم تلك وذاتها ؛ لأنّ الضرورة حالة غيبية ، لا يمكن للتجربة ووسائل البحث الاستقرائى والعلمى إثباتها ، ولهذا فإنّ منطق العلم الحديث يؤكد أنّ القانون الطبيعى ـ كما يعرّفه العلم ـ لا يتحدث عن علاقة ضرورية ، بل عن اقتران مستمر بين ظاهرتين (١) ، فإذا جات المعجزة وفصلت إحدى الظاهرتين عن الاخرى فى قانون طبيعى لم يكن ذلک فصماً لعلاقة ضرورية بين الظاهرتين .

والحقيقة أنّ المعجزة بمفهومها الدينى ، قد أصبحت فى ضوء المنطق العلمى الحديث مفهومة بدرجة أكبر مما كانت عليه فى ظلّ وجهة النظر الكلاسيكية الى علاقات السببية .

فقد كانت وجهة النظر القديمية تفترض أنّ كلّ ظاهرتين اطرّد اقتران إحداهما بالأخرى فالعلاقة بينهما علاقة ضرورة ، والضرورة تعنى أنّ من المستحيل ان تنفصل إحدى الظاهرتين عن الاخرى ، ولكن هذه العلاقة تحولت فى منطق العلم الحديث إلى قانون الاقتران أو التتابع المطّرد (٢) بين الظاهرتين دون افتراض تلک الضرورة الغيبية .

---

(١) وقد بسط الشهيد الصدر القول فى هذه المسألة فى كتابه فلسفتنا فراجع ص ٢٩٥ و ٢٩٩ .

(٢) راجع فلسفتنا : ص ٢٨٢ وما بعدها .

وبهذا تصبح المعجزة حالة استثنائية لهذا الاطّراد فى الاقتران أو التتابع دون ان تصطدم بضرورة او تؤدى الى استحالة .

وأما على ضوء الاسس المنطقية للاستقراء (١) فنحن نتفق مع وجهة النظر العلمية الحديثة ، فى أنّ الاستقراء لا يبرهن على علاقة الضرورة بين الظاهرتين ، ولكنّا نرى أنّه يدلّ على وجود تفسير مشترک لاطّراد التقارن او التعاقب بين الظاهرتين باستمرار ، وهذا التفسير المتشرک كما يمكن صياغته على أساس افتراض الضرورة الذاتية ، كذلک يمكن صياغته على أساس افتراض حكمة دعت منظم الكون إلى ربط ظواهر معينة بظواهر أخرى باستمرار ، وهذه الحكمة نفسها تدعو أحياناً إلى الاستثناء فتحدث المعجزة .

---

(١) راجع بسط وشرح النظرية فى «الأسس المنطقية للاستقراء» حيث توصل الإمام الشهيد الصدر رضى الله عنه الى اكتشاف مهم وخطير على صعيد نظرية المعرفة بشكل عام .

ص:٨١

(المبحث الثالث)

لماذا كل هذا

لاحرص على إطالة عمره ؟

ص:٨٢

ونتناول الآن السؤال الثانى ، وهو يقول :

لماذا كلّ هذا الحرص من الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان بالذات ، فتُعطّل من أجله القوانين الطبيعية لإطالة عمره ؟ ولماذا لا تترك قيادة اليوم الموعود لشخص يتمخض عنه المستقبل ، وتضجه إرهاصات اليوم الموعود فيبرز على السلاحة ويمارس دوره المنتظر .

وبكلمة أخرى : ما هى فائدة هذه الغيبة الطويلة وما المبرّر لها ؟

وكثير من الناس يسألون هذا السؤال وهم لا يريدون ان يسمعوا جواباً غيبياً ، فنحن نؤمن بأنّ الأئمة الاثنى عشر مجموعة فريدة (١) لا يمكن التعويض عن

---

(١) اشارة الى معتقد الإمامية الاثنى عشرية المستند إلى أدلة المعقول والمنقول ، وبالأخص إلى حديث الثقلين المتواتر «إنّى تركتم فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبداً كتاب الله وعترتى أهل بيتى» . راجع : صحيح مسلم ۴ : ١٨٧٣ وراجع الصواعق المحرقة لابن حجر : ص ٨٩ ، قال : ثمّ اعلم أنّ لحديث التمسّک بذلک طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً .

وكذلک إلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض ..» وإلى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «الخلفاء بعدى اثنا عشر كلهم من قريش» . ومفاد ذلک كله تقرير هذا المعنى .

أى واحد منهم ، غير أنّ هؤلاء المتسائلين يطالبون بتفسير اجتماعى للموقف ، على ضوء الحقائق المحسوسة لعملية التغيير الكبرى نفسها والمتطلبات المفهومة لليوم الموعود .

وعلى هذا الاساس نقطع النظر مؤقتاً عن الخصائص التى نؤمن بنوفرها فى هؤلاء الائمة المعصومين (١) ونطرح السؤال التالى :

إننا بالنسبة إلى عملية التغيير المرتقبة فى اليوم الموعود ، بقدر ما تكون مفهومة على ضوء سنن الحياة وتجاربها ، هل يمكن ان نعتبر هذا العمر الطويل لقائدها المدّخر عاملاً من عوامل إنجاحها ، وتمكنه من ممارستها وقيادتها بدرجة أكبر ؟

ونجيب عن ذلک بالإيجاب ، وذلک لعدة أسباب منها ما يلى :

إنّ عملية التغيير الكبرى تتطلب وضعاً نفسياً فريداً فى القائد الممارس لها ، مشحوناً بالشعور .. بالتفوق والإحساس بضآلة الكيانات الشامخة التى أُعُدّ للقضاء عليها ، وتحويلها حضارياً إلى عالم جديد .

فبقدر ما يعمر قلب القائد المغيّر من شعور بتفاهة الحضارة التى يصارعها ، وإحساس واضح بأنها مجرد نقطة على الخط الطويل لحضارة الإنسان ، يصبح أكثر

---

(١) تحدّث النبى الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً عن خصائصهم وأدوارهم ، ووظيفتهم ومهماتهم ، وأنهم حملة الشريعة ، وسفن النجاة ، وأمان الأمّة ، وعصمتها من الضلال ، كما اليه الإشارة فى حديث الثقلين ، وحديث لن يفترقا وكلاهما يؤكدان عصمتهم ، إذ لا يعقل أنهم عصمة اُمّة من الضلال ، وأنهم لن يفترقا عن القرآن المعصوم ، وهم غير معصومين !!

راجع فى هذا المطلب : الأصول العامة للفقه المقارن | العلامة محمد تقى الحكيم | مبحث حجية السنّة : ص ١٦٩ وما بعدها .

قدرة من الناحية النفسية (١) على مواجهتها والصمود فى وجهها ومواصلة العمل ضدها حتى النصر .

ومن الواضح أنّ الحجم المطلوب من هذا الشعور النفسى يتناسب مع حجم التغيير نفسه ، وما يراد القضاء عليه من حضارة وكيان ، فكلما كانت المواجهة لكيان أكبر ولحضارة أرسخ وأشمخ تطلّبت زخماً أكبر من هذا الشعور النفسى المفعم .

ولما كانت رسالة اليوم الموعود تغيير عالم ملىء بالظلم وبالجور ، تغييراً شاملاً بكل قيمه الحضارية وكياناته المتنوعة ، فمن الطبيعى ان تفتش هذه الرسالة عن شخص أكبر فى شعوره النفسى من ذلک العالم كله ، عن شخص ليس من مواليد ذلک العالم الذين نشأوا فى ظل تلک الحضارة التى يراد تقويضها واستبدال حضارة العدل والحق بها ؛ لأنّ من ينشأ فى ظل حضارة راسخة

، تعمر الدنيا بسلطانها وقيمها وفكارها ، يعيش فى نفسه الشعور بالهيبة تجاهها ؛ لأنّه ولد وهى قائمة ونشأ صغيراً وهى جبارة ، وفتح عينيه على الدنيا فلم يجد سوى أوجهها المختلفة .

وخلافاً لذلک ، شخص يتوغل فى التاريخ عاش الدنيا قبل أن ترى تلک الحضارة النور ، ورأى الحضارات الكبير سادت العالم الواحدة تلو الأخرى ثمّ تداعت وانهارت (٢) ، رأى ذلک بعينيه ولم يقرأه فى كتاب تاريخ ..

---

(١) أن يكون القائد التاريخى مهيّئاً نفسياً ومعدّاً إعداداً مناسباً لأداء المهمة ، أمرٌ مفروغ منه ، ولو رجعنا الى القرآن الكريم لوجدناه يتحدث عن هذه المسألة فى تاريخ الأنبياء بصورة واضحة جداً ، وبخاصة فيما يتعلق بالنبى نوح عليه السلام ، وهو أمر يلفت الانتباه والنظر ، وربما يكون للتشابه والاتفاق فى الدور والمهمة التى أوكلت لهما ، كما نبّه الشهيد الصدر رضى الله عنه إليه .

راجع : مع الأنبياء | عفيف عبد الفتاح طبارة .

(٢) ويمكن ان وتقرّب هذا المعنى بما عشناه وشاهدناه من صعود الاتحاد السوفيتى وترقية حتى صار

ثمّ رأى الحضارة التى يقدّر لها أن تكوّن الفصل الأخير من قصة الإنسان قبل اليوم الموعود ، رآها وهى بذور صغيرة لا تكاد تتبين ..

ثمّ شاهدها وقد اتخذت مواقعها فى أحشاء المجتمع البشرى تتربص الفرصة لكى تنمو وتظهر ..

ثمّ عاصرها وقد بدأت تنمو وتزحف وتصاب بالنكسة تارة ويحالفها التوفيق تارة أخرى ..

ثمّ واكبها وهى تزدهر وتتعملق وتسيطر بالتدريج على مقدّرات عالم بكامله ، فإنّ شخصاً من هذا القبيل عاش كلّ هذه المراحل بفطنة وانتباه كاملين ينظر إلى هذا العملاق ـ الذى يريد أن يصارعه ـ من زاوية ذلک الامتداد التاريخى الطويل الذى عاشه بحسّه لا فى بطون كتب التاريخ فحسب ، ينظر إليه لا بوصفه قدراً محتوماً ، ولا كما كان ينظر (جان جاک روسو) (١) إلى الملكيّة فى فرنسا ، فقد جاء عنه انّه كان يرعبه مجرد أن يتصور فرنسا بدون ملک ، على الرغم من كونه من الدعاة الكبار فكرياً وفلسفياً الى تطوير الوضع السياسى القائم وقتئذٍ ؛ لأنّ (روسو) هذا نشأ فى ظل الملكيّة ، وتنفس هواءها طيلة حياته ،

وأما هذا الشخص المتوغل فى التاريخ ، فله هيبة التاريخ ، وقوة التاريخ ، والشعور المفعم بأنّ ما حوله من كيان وحضارة وليد يوم من أيام التاريخ ، تهيأت له الأسباب فُوُجِد ، وستتهيأ

القطب الثانى فى العالم ، وتقاسم هو وأمريكا النفوذ الحضارى والهيمنة السياسية ، وركبا معاً أجواء الفضاء ، ثمّ شهدنا انهيار الاتحاد السوفيتى وتفكك أوصاله بمثل تلك السرعة القياسية فى الانهيار ، فكم كان لذلك من أثر ؟ وكم كان فيه من عبرة ؟ وكم فيه من دلالة عميقة ؟

(١) جان جاک روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨ م) كاتب وفيلسوف فرنسى اعتبره بعض النقاد الوجه الأبعد نفوذاً فى الادب الفرنسى الحديث والفلسفة الحديثة ، وقد مهدت كتاباته ومقالاته للثورة الفرنسية ، وأشهر مؤلفاته العقد الاجتماعى . راجع : موسوعة المورد | منير البعلبكى ٨ : ١٦٩ .

الأسباب فيزول ، فلا يبقى منه شىء كما لم يكن يوجد منه شىء بالأمس القريب أو البعيد ، وانّ الأعمار التاريخية للحضارات والكيانات مهما طالت فهى ليست إلاّ أياماً قصيرة فى عمر التاريخ الطويل .

هل قرأت سورة الكهف ؟

وهل قرأت عن أولئک الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدى (١) ؟ وواجهوا كياناً وثنياً حاكماً ، لا يرحم ولا يتردد فى خنق أى بذرة من بذور التوحيد والارتفاع عن وحدة الشرک ، فضاقت نفوسهم ودبّ إليها اليأس وسدّت منافذ الأمل أمام أعينهم ، ولجأوا إلى الكهف يطلبون من الله حائلاً لمشكلتهم بعد أن أعيتهم الحلول ، وكبر فى نفوسهم أنّ يظل الباطل يحكم ويظلم ويقهر الحق ويصفّى كلّ من يخفف قلبه للحق .

هل تعلم ماذا صنع الله تعالى بهم ؟

إنه أنامهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين (٢) فى ذلک الكهف ، ثمّ بعثهم من نومهم ودفع بهم إلى مسرح الحياة ، بعد أن كان ذلک الكيان الذى بهرهم بقوتهم وظلمه قد تداعى وسقط ، واصبح تاريخاً لا يُرعب احداً ولا يُحرّک ساكناً كل ذلک لكى يشهد هؤلاء الفتية مصرع ذلک الباطل الذى كبر عليهم امتداده وقوته واستمراره ويرو انتهاء امره باعينهم ويتصاغر الباطل فى نفوسهم .

ولئن تحققت لأصحاب الكهف هذه الرؤية الواضحة فى كل ما تحمّل من زخم وشموخ نفسيّين من خلال ذلک الحدث الفريد الذى مددّ حياتهم ثلاثمائة سنة ، فإن

---

(١) اشارة الى الآية القرآنية المباركة : (إِنَّهُم فِتيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِم وَزِدنَهُمْ هُدًى ...) الكهف : ١٣ ، وراجع تفسيرها فى الكاشف | الزمخشرى ٢ : ٧٠٦ ، نشر دار الكتاب العربى ـ بيروت .

(٢) إشارة إلى الآية : (وَلَبِثُوا فِى كَهفِهِم ثَلَـثَ مِائَة سِنِينَ وَازدَادُوا تِسعاً ...) الكهف : ٢٥ .

الشىء نفسه يتحقق للقائد المنتظر من خلال عمره المديد الذى يتيح له أن يشهد العملاق وهو قزم والشجرة الباسقة وهى بذرة ، والإعصار وهو مجرد نسمة (١) .

اضف الى ذلک ان التجربة التى تتيحها مواكبة تلک الحضارة المتعاقبة ، والمواجهة المباشرة لحركتها وتطوارتها لها أثر كبير فى الإعداد الفكرى وتعمير الخبرة القيادية فى اليوم الموعود ؛ لأنها تضع الشخص المدّخر امام ممارسات كثيرة للآخرين بكل ما فيها من نقاط الضعف والقوة ، ومن ألوان الخطأ والصواب ، وتعطى لهذا الشخص قدرة اكبر على تقييم الظواهر الاجتماعية بالوعى الكامل على أسبابها ، وكل ملابساتها التاريخية .

ثمّ إنّ عملية التغيير المدّخرة للقائد المنتظر تقوم عى أساس رسالة معينة هى رسالة الاسلام ، ومن الطبيعى ان تتطلّب العملية فى هذه الحالة قائداً قريباً من مصادر الاسلام الاولى ، قد بنيت شخصيته بناءً كاملاً بصورة مستقلة ومنفصلة عن مؤثرات الحضارة التى يقدر اليوم الموعود أن يحاربها .

وخلافاً لذلک ، الشخص الذى يولد وينشأ فى كنف هذه الحضارة وتتفتح افكاره ومشاعره فى إطارها ، فإنّه لا يتخلص غالباً من رواسب تلک الحضارة ومرتكزاتها ، وإن قاد حملة تغييرية ضدّها .

فلكى يضمن عدم تأثر القائد المدّخر بالحضارة التى أُعدّ لإستبدالها ، لابدّ أن تكون شخصية قد بنيت بناءاً كاملاً حضارية سابقة هى أقرب ما

---

(١) وكلّ ذلک له مدخلية فی تربية وإعداده الاعداد الخاص ، بما فی ذلک من امتلاکه النظرة الشمولية العميقة ، فضلاً عن شهوده بنفسه ضآلة أولئک المتعملقين الذين يملؤون الدنيا ضجيجاً وصخباً ، ويسترهبون الناس ، وهذا الشهود يؤهله أكثر فأكثر لأداء مهمته الكونية فی التغيير ، أی ملئه للأرض عدلاً بعد ما ملئت ظلماً ، هذه بغمض النظر الی مؤهلاته الذاتية ، والعناية الربانية الخاصة .

ص:٨٩

تكون فی الروح العامة ومن ناحية المبدأ إلی الحالة الحضارية التی يتجه اليوم الموعود الی تحقيقها بقيادته (١) .

---

(١) ولا ينبغی ان يُشكل أحد بإنّ النبی محمد صلی الله عليه وآله وسلم مع عالمية رسالته ومهمته التغييرة الكبری إلا أنه عاش فی كنف الحضارة الجاهلية ، ولم يتأثر بها ، وكذا الانبياء السابقون ، فما هو الوجه فی هذا الرأی ؟

فجوابه :

أ ـ إنّ النبی صلی الله عليه وآله وسلم قد أخضع فعلاً إلی حالة عزالة تامة عن الحضارة الجاهلية ، وأنه كما ورد فی السيرة النبويّة قد حُبّبَ إليه الخلاء ، وكان يذهب إلی غار حراء يتحنث فيه وكذا الأنبياء كانوا يتنزّهون عما عليه مجتمعهم ، وكانوا يعتزلون ، واليه الاشارة فی قوله تعالی : (فَلُمّا اعتَزَلَهُم ومَا يَعبُدُون مِن دون الله وَهَبنا لَهُ إسْحَاقَ) مريم : ٤٩ .

ب ـ إنّ النبی المرسل يوحی اليه ، ويسدّد مباشرة من السماء ، ويبلّغ بالأعمال والخطوات التی يتخذها خطوةً خطوةً ، والإمام عليه السلام لا يوحی اليه ـ كما هو عقيدة الامامية ـ ولا يبلّغ بالأمور مباشرةً من السماء ، نعم يكون مسدّداً وتحت العناية الربانية ، ولذلک فهو يحتاج إلی اعداد خاص . ففی نفس الوقت الذی يكون فيه قريباً ومتصلاً بالحضارة الإسلامية ، مستمداً من آبائه عليهم السلام الأصالة والمعرفة والعلم ، يكون مطّلعاً علی التجارب البشرية والحضارات فی صعودها وعوامل تكوّنها وقوتها ، وكذلک إخفاقاتها وعوامل ضعفها وانهيارها ، فيستمد الخبرة والقدرة والإحاطة بالأمور جميعاً ، هذا مع اعتقادنا بقدرات الامام العلمية الذاتية التی وهبها الله تعالی له ، وبكونه مسدداً من السماء كما سيتوضح فی المبحث الرابع .

ص:٩٠

ص:٩١

(المبحث الرابع)

كيف اكتمل

إعداد القائد المنتظر ؟

ص:٩٢

ص:٩٣

ونأتى الآن على السؤال الثالث القائل : كيف اكتمل إعداد القائد المنتظر مع أنه لم يعاصر أباه الإمام العسكرى إلاّ خمس سنوات تقريباً ؟ وهى فترة الطفولة التى لا تكفى لإنضاج شخصية القائد ، فما هى الظروف التى تكامل من خلالها ؟

والجواب : إنّ المهدى عليه السلام خَلَفَ أباه فى إمامة المسلمين ، وهذا يعنى أنه كان إماماً بكلّ ما فى الإمامة من محتوىً فكرى وروحى فى وقت مبكر جداً من حياته الشريفة .

والإمامة المبكرة ظاهرة سَبقه إليها عددٌ من آبائه عليهم السلام ، فالإمام محمد بن على الجواد عليه السلام تولّى الإمامة وهو فى الثامنة من عمره (١) ، والإمام على بن محمد الهادى تولّى الإمامة وهو فى التاسعة (٢) من عمره ، والإمام أبو محمد الحسن العسكرى (٣) والد القائد المنتظر تولّى الامامة وهو فى الثانية والعشرين من عمره ،

---

(١) : الفصول المهمة لابن الصباغ المالكى المكى (ت ٨٥٥ هـ) . وراجع : الإرشاد | الشيخ المفيد : ص ٣١٦ وما بعدها .

(٢) و (٣) : التتمة فى تواريخ الأئمة | السيد تاج الدين العاملى من أعلام القرن الحادى عشر الهجرى ، نشر مؤسسة البعثة ـ قم . وراجع : الصواعق المحرقة لابن حجر : ص ١٢٣ ـ ١٢٤ ، وإذ ذكر طرفاً من سيرة الإمام وكراماته .

ص:٩٤

ويلاحظ أنّ ظاهرة الإمامة المبكرة بلغت ذروتها فى الإمام المهدى والإمام الجواد ، ونحن نسميها ظاهرة لأنها كانت بالنسبة إلى عدد من آباء المهدى عليه السلام تشكل مدلولاً حسيّاً علمياً عاشه المسلمون ، ووعوه فى تجربتهم مع الامام بشكل وآخر ، ولا يمكن ان نطالب بإثباتٍ لظاهرة من الظواهر أوضح وأقوى من تجربة أمّة (١) .

ونوضح ذلک ضمن النقاط التالية :

أ ـ لم تكن إمامة الإمام من أهل البيت مركزاً من مراكز السلطان والنفوذ التى تنتقل بالوراثة من الأب إلى الابن ، ويدعمها النظام الحاكم كإمامة الخلفاء الفاطميين ، وخلافة الخلفاء العباسيين ، وانما كانت تكتسب ولاء قواعدها الشعبية الواسعة عن طريق التغلغل الروحى ، والإقناع الفكرى لتلک القواعد بجدارة هذه الإمامة لزعامة الإسلام ، وقيادته على أسس روحية وفكرية .

ب ـ إنّ هذه القواعد الشعبية بنيت منذ صدر الاسلام ، وازدهرت واتسعت على عهد الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام ، وأصبحت المدرسة التى رعاها هذان الإمامان فى داخل هذه القواعد تشكل تياراً فكرياً واسعاً فى العالم الاسلامى ، يضم المئات من الفقهاء والمتكلمين والمفسرين والعلماء فى مختلف ضروب المعرفة الإسلامية والبشرية المعروفة وقتئذٍ ، حتى قال الحسن بن على الوشا : إنى دخلت مسجد الكوفة فرأيت فيه تسعمائة شيخ (٢) كلهم يقولون حدثنا جعفر بن محمد .

---

(١) راجع : الإرشاد | الشيخ المفيد : ص ٣١٩ وما بعدها .

الصواعق المحرقة : ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

فقد أوردا قصة المحاورة التى دارت بين الإمام الجواد عليه السلام وبين يحيى بن أكثم زمن المأمون ، وكيف استطاع الإمام عليه السلام أن يثبت أعلميته وقدرته على إفحام الخصم وهو فى تلک السن المبكرة .

(٢) راجع : المجالس السنية | السيد الأمين العاملى ٥ : ٢٠٩ ، وهذه قضية مهشورة تناقلها الخاص

ج ـ إنّ الشروط التى كانت هذه المدرسة وما تمثله من قواعد شعبية فى المجتمع الإسلامى ، تؤمن بها وتتقيد بموجبها فى تعيين الإمام والتعرف على كفاءته للإمامة ، شروط شديدة ؛ لأنها تؤمن بأنّ الإمام لا يكون إماماً إلاّ اذا كان أعلم علماء عصره (١) .

د ـ إنّ المدرسة وقواعدها الشعبية كانت تقدم تضحيات كبيرة فى سبيل الصمود على عقيدتها فى الإمامة ؛ لأنها كانت فى نظر الخلافة المعاصرة لها تشكل خطا عدائياً ، ولو من الناحية الفكرية على الأقل ، الأمر الذى أدّى إلى قيام السلطات وقتئذٍ

وباستمرار تقريباً حملات من التصفية والتعذيب ، فقتل من قتل ، وسجن من سجن ، ومات فى ظلمات المعتقلات المئات . وهذا يعنى أنّ الاعتقاد بإمامة أئمة أهل البيت كان يكلّفهم غالياً (٢) ، ولم يكن له من الإغراءات سوى ما يحسّ به المعتق أو يفترضه من التقرب إلى الله تعالى والزلفى عنده .

هـ ـ إنّ الأئمة الذين دانت هذه القواعد لهم بالإمامة لم يكونوا معزولين عنها ،

والعام . وراجع : صحاح الأخبارى | محمد سراج الدين الرفاعى : ص ۴۴ ، نقلاً عن الامام الصادق والمذاهب الاربعة | أسد حيدر ١ : ۵۶ . وقال ابن حجر فى الصواعق المحرقة ص ١٢٠ : «جعفر الصادق ، نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان ، وانتشر صيته فى جميع البلدان ، وروى عنه الأئمة الأكابر كيحيى بن سعيد وابن جريح ومالک والسفيانين وأبى حنيفة وشعبة وأيوب السختيانى ... » .

(١) كون الإمام أعلم أهل زمانه أمرٌ متسالم عليه عند الإمامية . راجع : الباب الحادى عشر | العلامة الحلى ، هذا وقد عرّضوا لأكثر من اختبار صلوات اله وسلامه عليهم لإثبات هذا المدّعى ، ونحجوا فيه .

راجع : الصواعق المحرقة لابن حجر : ص ١٢٣ ، فقد نقل تفصيلاً فى هذه المسألة عن مسائل يحيى بن أكثم للإمام الجواد عليه السلام .

(٢) إنّ الاعتقاد بإمامة الائمة كلّف أتباعهم غالياً ، وهذا ثابت تاريخياً ، وليس الى إنكاره من سبيل ، والشاهد يدل على الغائب أيضاً . راجع : مقاتل الطالبين لأبى الفرج الأصفهانى .

ولا متقوقعين فى بروج عالية الشأن السلاطين مع شعوبهم ،ولم يكونوا يحتجبون عنهم إلاّ أن تحجبهم السلطة الحاكمة بسجن او نفى ، وهذا ما نعرفه من خلال العدد الكبير من الرواة والمحدثين عن كلّ واحد من الائمة الاحد عشر ، ومن خلال ما نقل من المكاتبات التى كانت تحصل بين الإمام ومعاصريه ، وما كان الإمام يقوم به من أسفار من ناحية ، وما كان يبثّه من وكلاء فى مختلف انحاء العالم الاسلامى من ناحية اخرى ، وما كان قد اعتاده الشيعة من تفقّد أئمتهم وزيارتهم فى المدينة المنورة عندما يؤمون الديار المقدّسة من كلّ مكان لأداء فريضة الحج (١) ، كلّ ذلک يفرض تفاعلاً مستمراً بدرجة واضحة بين الامام وقواعده الممتدة فى أرجاء العالم الإسلامى بمختلف طبقاتها من العلماء وغيرهم .

و ـ إنّ الخلافة المعاصرة للأئمّة عليهم السلام كانت تنظر إليهم وإلى زعامتهم الروحية والإمامية بوصفها مصدر خطر كبير على كيانها ومقدّراتها ، وعلى هذا الأساس بذلت كلّ جهودها فى سبيل تفتيت هذه الزعامة ، وتحملت فى سبيل ذلک كثيراً من السلبيات ، وظهرت أحياناً بمظاهر القسوة والطغيان حينما اضطرها تأمين مواقعها إلى ذلک ، وكانت حملات الاعتقال والمطاردة مستمرة للأئمة (٢) أنفسهم على الرغم مما يخلّفه ذلک من شعور بالألم أو الاشمئزاز عند المسلمين وللناس الموالين على اختلاف درجاتهم .

---

(١) وقد أوصى الأئمة بذلک أتباعهم كما هو لسان الروايات الكثيرة .

راجع : أصول الكافى ١ : ٣٢٢ | كتاب الحجة ـ باب ٢ «إنّ الواجب على الناس بعدما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم ، ويعلمونه ولا يتهم ومودتهم له» .

(٢) راجع فى تاريخ الائمة عليهم السلام ، وتعرّضهم للأضطهاد والمطاردة والسجن والقتل أحياناً :

أ ـ الفصول المهمة لابن الصباغ المالكى .

ب ـ مقاتل الطالبين لابى الفرج الأصفهانى .

جـ ـ الإرشاد للشيخ المفيد .

إذا أخذنا هذه النقاط الست بعين الاعتبار ، وهى حقائق تاريخية لا تقبل الشک ، أمكن ان نخرج بنتيجة وهى : انّ ظاهرة الامامة المبكرة كانت ظاهرة واقعية ولم تكن وهماً من الأوهام ؛ لأنّ الإمام الذى يبرز على المسرح وهو صغير فيعلن عن نفسه إماماً روحياً وفكرياً للمسلمين ، ويدين له بالولاء والإمامة كلّ ذلک التيار الواسع ، لابدّ أن يكون على قدر واضح وملحوظ بل وكبير من العلم والمعرفة وسعة الأفق والتمكن من الفقه والتفسير والعقائد ؛ لأنه لو لم يكن كذلک لما أمكن ان تقتنع تلک القواعد الشعبية بإمامته ، مع ما تقدم من أنّ الأئمة كانوا فى مواقع تتيح لقواعدهم التفاعل معهم وللأضواء المختلفة أن تسلّط على حياتهم وموازين شخصيتهم . فهل ترى أنّ صبياً يدعو إلى إمامة نفسه وينصب منها علماً للإسلام وهو على مرأىً ومسمع من جماهير قواعده الشعبية ، فتؤمن به وتبذل فى سبيل ذلک الغالى من أمنها وحياتها بدون ان تكلّف نفسها اكتشاف حاله ، وبدون ان تهزّها ظاهرة هذه الإمامة المبكرة لاستطلاع حقيقة الموقف وتقييم هذا الصبى الإمام ؟ (١) وَهَب أنّ الناس لم يتحركوا

لاستطلاع المواقف ، فهل يمكن أن تمرّ المسألة أياماً وشهوراً بل أعواماً دون ان تتكشف الحقيقة على الرغم من التفاعل الطبيعى المستمر بين الصبى الإمام وسائر الناس ؟ وهل من المعقول ان يكون صبياً فى فكره وعلمه حقاً ثمّ لا يبدو ذلک من خلال هذا التفاعل الطويل ؟

وإذا افترضنا أنّ القواعد الشعبية لإمامة أهل البيت لم يتح لها ان تكتشف واقع الامر ، فلماذا سكتت الخلافة القائمة ولم تعمل لكشف الحقيقة اذا كانت فى صالحها ؟ وما كان ايسر ذلک على السلطة القائة لو كان الإمام الصبى صبياً فى فكره وثقافته كما هو المعهود فى الصبيان ، وما كان أنجحه من اسلوب أن تقدم هذا الصبى إلى شيعته وغير شيعته على حقيقته ، وتبرهن على عدم فكاءته للإمامة

---

(١) إشارة الى الامام المهدى عليه السلام ، ومن قبل إلى الإمام الجواد مثلاً .

والزعامة الروحية والفكرية . فلئن كان من الصعب الإقناع بعدم كفاءة شخص فى الأربعين أو الخمسين قد أحاط بقدرٍ كبير من ثقافة عصره لتسلّم الإمامة ، فليس هناک صعوبة فى الإقناع بعدم كفاءة صبى أعتيادى مهما كان ذكياً وفطناً للإمام بمعناها الذى يعرفه الشيعة الاماميون (١) ، وكان هذا أسهل وأيسر من الطرق المعقدة وأساليب القمع والمجازفة التى انتهجتها السلطات وقتئذٍ .

إنّ التفسير الوحيد لسكوت الخلافة المعاصرة عن اللعب بهذه الورقة (٢) ، هو أنها أدركت أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة حقيقية وليست شيئاً مصطنعاً .

والحقيقة أنها أدركت ذلک بالفعل بعد أن حاولت ان تلعب بتلک الورقة فلم تستطع ، والتأريخ يحدثنا عن محاولات من هذا القبيل وفشلها (٣) ، بينما لم يحدثنا إطلاقاً عن موقف تزعزعت فيه ظاهرة الإمامة المبكرة أو واجه فيه الصبّى الإمام إحراجاً يفوق قدرته أو يزعزع ثقة الناس فيه .

وهذا معنى ما قلناه من أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية فى حياة أهل البيت وليست مجرد افتراض ، كما أنّ هذه الظاهرة الواقعية لها جذورها وحالاتها المماثلة فى تراث السماء الذى امتد عِبرَ الرسالات والزعامات الربانية .

ويكفى مثالاً لظاهرة الإمامة المبكرة فى التراث الربانى لأهل البيت عليهم السلام

(١) أى على انه يجب ان يكون افضل الناس ، وأعلم الناس كما هو معتقد الإمامة الاثنى عشرية .

راجع : حق اليقين فى معرفة أصول الدين للسيد عبد الله شبر (ت | ١٢٤٢ هـ) ١ : ١٤١ ، المقصد الثالث .

(٢) يقصد تقديم الإمام الصبى للأختبار أمام الملأ لإظهار حقيقة الأمر .

(٣) قد فعل المأمون ذلک ، وانكشف لدى الخاص من العلماء مدى ما يمتلكه الإمام الجواد عليه السلام من الفقه والعلم . راجع : الصواعق المحرقة لابن حجر : ص ١٢٣ .

ص:٩٩

يحيى عليه السلام إذ قال الله سبحانه وتعالى : (يَا يَحْيَى خُذِ الكِتَابَ بِقُوّةٍ وَآتَينَاهُ الحُكمَ صَبِيّاً) سورة مريم : ١٢ .

ومتى ثبت أنّ الإمامة المبكرة ظاهرة واقعية ومتواجدة فعلاً فى حياة أهل البيت لم يعد هناک اعتراض فيما يخصّ إمامة المهدى عليه السلام لأبيه وهو صغير (١) .

(١) وقد شاهد خاصة الشيعة الإمام المهدى واتصلوا به ، واخذوا عنه ، كما حصل عن طريق السفراء الاربعة . راجع : تبصرة الولى فيمن رأى القائم المهدى | البحرانى ، الإرشاد | الشيخ المفيد : ص ٣٤٥ ، وراجع تفصيلاً وافياً فى دفاع عن الكافى | السيد ثامر العميدى ١ : ٥٣٥ وما بعدها.

(المبحث الخامس)

كيف نؤمن

بأن المهدى قد وجد

ص:١٠٢

ص:١٠٣

ونصل الآن إلى السؤال الرابع وهو يقول : هب أنّ فرضية القائد المنتظر ممكنة بكلّ ما تستبطنه من عمر طويل ، وإمامة مبكرة ، وغيبة صامتة ، فإنّ الإمكان لا يكفى للاقتناع بوجوده فعلاً .

فكيف نؤمن فعلاً بوجود المهدى ؟ وهل تكفى بضع روايات تنقل فى بطون الكتب عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم للاقتناع الكامل بالامام الثانى عشر على الرغم مما فى هذا الافتراض من غرابة وخروج عن المالوف ؟ بل كيف يمكن أن نثبت أنّ للمهدى وجوداً تاريخياً حقّاً وليس مجرد افتراض توفرت ظروف نفسية لتثبيته فى نفوس عدد كبير من الناس ؟ (١)

والجواب : إنّ فكرة المهدى بوصفه القائد المنتظر لتغير العالم إلى الأفضل قد جاءت فى أحاديث الرسول الاعظم عموماً ، وفى روايات أئمة أهل البيت

---

(١) هذه التساؤلات يطرحها السيد الشهيد رضى الله عنه بصفتها من الإشكالات التى أثيرت وتثار عادةً حول المهدى عليه السلام ، وهى أقصى ما يثار فى هذا الصدد ، حتّى إنّ بعض الكتّاب المعاصرين قد أثاروها أخيراً مدفوعين بدوافع غير علمية ، مصحوبة تلك الإثارة بضجيج مكثفٍ ، ومحاولات بائسة من الوهابية لترويجها وتبنيها ، ولا تخفى الدوافع بعد ذلك على أحد . وقد أجاب الإمام الشهيد بجواب علمى لمن يريد الحقيقة . راجع ما كتبناه فى المقدمة أيضاً .

خصوصاً ، وأكدت فى نصوص كثيرة بدرجة لا يمكن أن يرقى إليها الشک . وقد أحصى أربعمائة حديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم من طرق إخواننا أهل السنّة (١) ، كما أُحصى مجموع الأخار الواردة فى الإمام المهدى من طرق الشيعة والسنّة فكان أكثر من ستة آلاف رواية (٢) ، وهذا رقم إحصائى كبير لا يتوفر نظيره فى كثير من قضايا الإسلام البديهية التى لا يشک فيها مسلم عادة .

وأما تجسيد هذه الفكرة فى الإمام الثانى عشر عليه الصلاة والسلام فهذا ما توجد مبررات كافية وواضحة للاقتناع به .

ويمكن تلخيص هذه المبررات فى دليلين :

أحدهما إسلامى .

والآخر علمى .

فبالدليل الإسلامى نثبت وجود القائم المنتظر .

وبالدليل العلمى نبرهن على أنّ المهدى ليس مجرد أسطورة وافتراض ، بل هو حقيقة ثبت وجودها بالتجربة التاريخية .

أما الدليل الاسلامى :

فيتمثل فى مئات الروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٣) والائمة من أهل

---

(١) يلاحظ كتاب (المهدى) للسيد «العم» الصدر قدس الله روحه الزكية . (الشهيد الصدر)

راجع : ما أثبته الشيخ العباد فى مجلة الجامعة الاسلامية | العدد ٣ سنة ١٩٦٩ .

وراجع : المهدى الموعود المنتظر | الشيخ نجم الدين العسكرى .

(٢) يلاحظ كتاب منتخب الأثر فى الامام الثانى عشر للشيخ لطف الله الصافى . (الشهيد الصدر)

(٣) راجع : معجم أحاديث الإمام المهدى | مؤسسة المعارف الاسلامية | الجزء الأول ـ أحاديث النبى .

البيت عليهم السلام والتى تدلّ على تعيين المهدى وكونه من أهل البيت (١) ..

ومن ولد فاطمة (٢) ..

ومن ذرية الحسين (٣) ..

وأنه التاسع من ولد الحسين (۴) ..

---

(١) أخرج أحمد وابن ابى شيبة وابن ماجة ونعيم بن حماد فى الفتن عن على عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «المهدى منّا أهل البيت يصلحه الله فى ليلة» .

راجع : الحاوى للفتاوى | السيوطى ٢ : ٢١٣ و ٢١٥ وفيه ، أيضاً : اخرج أحمد وابن أبى شيبة وأبو داود ، عن على ، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : «لو لم يبق من الدهر إلاّ يومُ لبعث الله رجلاً من أل بيتى يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً» ، وراجع : صحيح سنن المصطفى ٢ : ٢٠٧ ، وسنن ابن ماجة ٢ : ١٣۶٧ | ۴٠٨۵ .

وراجع : معجم أحاديث المهدى ١ : ١٤٧ وما بعدها إذ ينقل أحاديث كثيرة عن الصحاح والمسانيد فى هذا المعنى . وراجع : موسوعة الإمام المهدى | ترتيب مهدى فقيه إيمانى ، الجزء اأول ، وفيها نقول مصورة عن عشرات الكتب لعلماء السنّة ومحدّثيهم فى المهدى وصفاته ما يتعلق به وفيها نسخة مصورة الشيخ العباد حول ما جاء من الاحاديث والآثار فى المهدى عليه السلام .

(٢) الحاوى للفتاوى | السيوطى جلال الدين ٢ : ٢١٤ ، قال : وأخرج ابو داود وابن ماجة والطبرانى والحاكم عن أمّ سلمة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «المهدى من عترتى من ولد فاطمة» . راجع صحيح سنن المصطفى لأبى داود ٢ : ٢٠٨ .

(٣) حديث المهدى من ذرية الحسين عليه السلام كما فى المصادر الآتية على ما نقل فى معجم أحاديث المهدى وهى : الأربعون حديثاً لأبى نعيم الأصفهانى كما فى عقد الدرر للمقدسى الشافعى ، وأخرجه الطبرانى فى الأوسط على ما فى المنار المنيف لابن القيم ، وفى السيرة الحلبية ١ : ١٩٣ ، وفى القول المختصر لابن حجر . راجع منتخب الأثر للشيخ لطف الله الصافى فى ما نقله من كتب الشيعة . وراجع توهين الرواية التى تقول بأنه من ولد الحسن عليه السلام كتاب السيد العميدى (دفاع عن الكافى ١ : ٢٩٦) .

(٤) راجع الرواية التى تنص على أنّه التاسع من ولد الحسين عليه السلام فى : ينابيع المودة لقندوزى

ص:١٠٦

وانّ الخلفاء اثنا عشر (١) . فإنّ هذه الروايات تحدد تلك الفكرة العامة وتشخيصها فى الإمام الثانى عشر من أئمة اهل البيت ، وهى روايات بلغت درجة كبيرة من الكثرة والانتشار على الرغم من تحفّظ الأئمة عليهم السلام واحتياطهم فى طرح ذلك على المستوى العام ، وقايةً للخلف الصالح من الاغتيال أو الإجهاز السريع على حياته (٢) . وليست الكثرة العددية للروايات هى الأساس الوحيد لقبولها ، بل هناك إضافة إلى ذلك مزايا وقرائن تبرهن على صحتها ، فالحديث النبوى الشريف عن الائمة أو الخلفاء أو الأمراء بعده وأنهم اثنا عشر إماماً أو خليفةً أو أميراً ـ على اختلاف متن الحديث فى طرقه المختلفة ـ قد أحصى بعض المؤلفين رواياته فبلغت أكثر من مائتين وسبعين رواية (٣) مأخوذة من أشهر كتب الحديث عند الشيعة والسنّة بما فى ذلك البخارى (٤) ومسلم (٥) والترمذى (٦) وأبى داود (٧)

الحنفى : ص ۴۹۲ ، وفى مقتل الإمام الحسين للخوارزمى ۱ : ۱۹۶ ، وفى فرائد السمطين للجوينى الشافعى ۲ : ۳۱۰ ـ ۳۱۵ الأحاديث من ۵۶۱ ـ ۵۶۹ ، وراجع منتخب الأثر للعلامة الشيخ الصافى إذ خرّجها من طرق الفريقين (دفاع عن الكافى ۱ : ۲۹۴) .

(۱) حديث «الخلفاء بعدى اثنا عشر كلهم من قريش» أو «لا يزال هذا الدين قائماً ما وليه اثنا عشر كلهم من قريش» .

هذا الحديث متواتر ، روته الصحاح والمسانيد بطرق متعددة وإن اختلف فى متنه قليلاً . نعم ، اختلفوا فى تأويله واضطربوا . راجع : صحيح البخارى ۹ : ۱۰۱ كتاب الأحكام ـ باب الاستخلاف . صحيح مسلم ۲ : ۱۱۹ كتاب الإمارة . مسند أحمد ۵ : ۹۰ ، ۹۳ ، ۹۷ .

(۲) راجع الغيبة الكبرى | السيد محمد الصدر : ص ۲۷۲ وما بعدها .

(۳) راجع التاج الجامع للأصول ۳ : ۴۰ قال : رواه الشيخان الترمذى ، وراجع فى تحقيق الحديث وطرقه وأسانيده كتاب الإمام المهدى عليه السلام | على محمد على دخيل .

(۴) صحيح البخارى | المجلد الثالث | ۹ : ۱۰۱ ، كتاب الأحكام ـ باب الاستخلاف . طبعة دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .

(۵) و (۶) و (۷) راجع : التاج الجامع لأصول ۳ : ۴۰ ، قال تعقيباً على الحديث : رواه الشيخان

ومسند أحمد (۱) ومستدرک الحاكم على الصحيحين (۲) ، ويلاحظ هنا أنّ البخارى الذى نقل هذا الحديث كان معاصراً للإمام الجواد والإمامين الهادى والعسكرى ، وفى ذلک مغزىً كبير ؛ لأنه يبرهن على أنّ هذا الحديث قد سجّل عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يتحقق مضمونه وتكتمل فكرة الأئمة الاثنى عشر فعلاً ، وهذا يعنى أنه لا يوجد أى مجال للشک فى أن يكون نقل الحديث متأثراً بالواقع الإمامى الاثنى عشرى وانعكاسات أو تبريرات لواقع متأخر زمنياً لا تسبق فى ظهورها وتسجيلها فى كتب الحديث ذلک الواقع الذى تشكل انعكاساً له ، فما دمنا قد ملكنا الدليل المادى على أنّ الحديث المذكور سبق التسلسل التاريخى للأئمة الاثنى عشر ، وضبط فى كتب الحديث قبل تكامل الواقع الإمامى الاثنى عشرى ، أمكننا ان نتأكد من أنّ هذا الحديث ليس انعكاساً لواع وإنما هو تعبير عن حقيقة ربانية نطق بها من لا ينطق عن هوى (۳) ، فقال : «إنّ الخلفاء بعدى اثنا عشر» (۴) . وجاء الواقع الإمامى الاثنى عشرى ابتداءً من الإمام علىٍّ وانتهاءً بالمهدى ؛ ليكون التطبيق الوحيد المعقول (۵) لذلک الحديث النبوى الشريف .

والترمذى ، وفى الهامش قال : رواه أبو داود فى كتاب المهدى بلف : «لا يزال هذا الدين قائماً حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة ...» ، وراجع سنن أبى داود ٢ : ٢٠٧ .

(١) مسند الإمام أحمد ٥ : ٩٣ ، ١٠٠ .

(٢) المستدرک على الصحيحين ٣ : ٦١٨ .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إن هُوَ إلاّ وَحْىٌ يُوحَى) النجم : ٣ ـ ٤ .

(٤) تقدم تخريج الحديث .

(٥) اضطرب العلماء فى تأويله بعد إطباقهم على صحته ، وما أوردوه من مصاديق لا يمكن قبولها ، بل إنّ بعضها غير معقول تماماً كإدخالهم يزيد بن معاوية المجاهر بالفسق ، المحكوم بالمروق والكفر أو من هو على شاكلته . راجع ما نقله السيد ثامر العميدى من أقوالهم وقد ناقش هذه القضية مناقشة وافية وعلمية ، وأبطل تأويلاتهم بما لا مزيد عليه فى دفاع عن الكافى ١ : ٥٤٠ وما بعدها .

وأما الدليل العلمى :

هو يتكون من تجربة عاشتها أمّة من الناس فترة امتدت سبعين سنة تقريباً وهى فترة الغيبة الصغرى . لتوضيح ذلک نمهد بإعطاء فكرة موجزة عن الغيبة الصغرى (١) .

إنّ الغيبة الصغرى تُعبّر عن المرحلة الأولى من إمامة القائد المنتظر عليه الصلاة والسلام فقد قُدّر لهذا الإمام منذ تسلّمه للإمامة ان يستتر عن المسرح العام ويظلُّ بعيداً باسمه عن الأحداث وإن كان قريباً منها بقلبه وعقله ، وقد لوحظ أنّ هذه الغيبة إذا جاءت مفاجئة حققت صدمة كبيرة للقواعد الشعبية للإمامة فى الأمة الاسلامية ؛ لأنّ هذه القواعد كانت معتادة على الاتصال بالإمام فى كلّ عصر ، والتفاعل معه والرجوع إليه فى حلّ المشاكل المتنوعة ، فإذا غاب الإمام عن شيعته فجأة وشعروا بالانقطاع عن قيادتهم الروحية الفكرية ، سبّبت هذه الغيبة (٢) المفاجئة الإحساس بفراغٍ دفعى هائل قد يعصف بالكيان كله ويشتت شمله ، فكان لابدّ من تمهيد لهذه الغيبة ؛ لكى تألفها هذه القواعد بالتدريج ، وتكيّف نفسها شيئاً فشيئاً على أساسها ،

وكان هذا التمهيد هو الغيبة الصغرى التى اختفى فيها الإمام المهدى عن المسرح العام ، غير أنه كان دائم الصلة بقواعده وشيعته عن طرق وكلائه ونوابه والثقات من أصحابه الذين يشكلون همزة الوصل بينه وبين الناس المؤمنين بخطه الإمامى (٣) . وقد شغل مركز النيابة عن الإمام فى هذه الفترة أربعة

---

(١) راجع : الغيبة الصغرى | السيد محمد الصدر ، فقد توسّع فى بحثها .

(٢) إشارة الى الغيبة الكبرى .

(٣) راجع : تبصرة الولى فيمن رأى القائم المهدى | السيد هاشم البحرانى . دفاع عن الكافى | السيد ثامر العميدى ١ : ٥٦٨ وما بعدها .

ممن أجمعت تلك القواعد على تقواهم وورعهم ونزاهتهم التى عاشوا ضمنها وهم كما يلى :

١ ـ عثمان بن سعيد العمرى .

٢ ـ محمد بن عثمان بن سعيد العمرى .

٣ ـ أبو القاسم الحسين بن روح .

٤ ـ أبو الحسن على بن محمد السمرى .

وقد مارس هؤلاء الأربعة (١) مهام النيابة بالترتيب المذكور ، وكلما مات أحدهم خلفه الآخر الذى يليه بتعيين من الإمام المهدى عليه السلام .

وكان النائب يتصل بالشيعة ويحمل أسئلتهم إلى الإمام ، ويعرض مشاكلهم عليه ، ويحمل إليهم أجوبته شفهية أحياناً وتحريرية (٢) فى كثير من الأحيان ، وقد وجدت الجماهير التى فقدت رؤية إمامها العزاء والسلوة فى هذه المراسلات والاتصالات غير المباشرة . ولاحظت أنّ كلّ التوقيعات والرسائل كانت ترد من الإمام المهدى عليه السلام بخط واحد وسليقة واحدة (٣) طيلة نيابة النواب الأربعة التى استمرت حوالى سبعين عاماً ، وكان السمرى هو آخر النواب ، فقد أعلن عن انتهاء

(١) راجع ترجمة هؤلاء الأربعة فى كتاب الغيبة الصغرى للسيد محمد الصدر ، الفصل الثالث : ص ٣٩٥ وما بعدها ، نشر دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ١٩٨٠ .

(٢) وهذه تعرف بالتوقيعات ، وهى الأجوبة التحريرية والشفوية التى نقلت عن الإمام المهدى عليه السلام . راجع : الاحتجاج | الطبرسى ٢ : ٥٢٣ وما بعدها .

(٣) مما استقر فى الأوساط الأدبية وعند نقاد الأدب قديماً وحديثاً أنّ الأسلوب هو الرجل ، وهذه المقولة صحيحة . ومن هنا رأينا وسمعنا أنّ كثيراً من الادباء وقارئى الأدب يميزون بمجرد قراءة النص شعرياً كان نثرياً أنه لفلان أو لفلان ، وما ذلک إلاّ لأنّ الأسلوب هو الرجل ، وأنّ لكلّ كاتبٍ سمةً وطابعاً خاصاً فى كتابته يمكن تمييزه من غيره ، هذا فضلاً على تميّز خطّه الشريف من غيره من الخطوط .

مرحلة الغيبة الصغرى التى تتميز بنُواب معينين ، وابتداء الغيبة الكبرى التى لا يوجد فيها أشخاص معينون بالذات لوساطة بين الإمام القائد والشيعة ، وقد عبّر التحول من الغيبة الصغرى الى الغيبة الكبرى عن تحقيق الغيبة الصغرى لأهدافا وانتهاء مهمتها ؛ لأنها حصّنت الشيعة بهذه العملية التدريجية عن الصدمة والشعور بالفراغ الهائل بسبب غيبة الإمام ، واستطاعت ان تكيّف وضع الشيعة على أساس الغيبة ، وتعدّهم بالتدريج لتقبل فكرة النيابة العامة عن الإمام ، وبهذا تحولت النيابة من أفراد منصوصين (١) إلى خط عام (٢) ، وهو خط المجتهد العادل البصير بأمور الدنيا والدين تبعاً لتحول الغيبة الصغرى إلى غيبة كبرى .

والآن بإمكانک أن تقدّر الموقف فى ضوء ما تقدم ، لكى تدرک بوضوح أنّ المهدى حقيقة عاشتها أمة من الناس ، وعبّر عنها السفراء والنواب طيلة سبعين عاماً من خلال تعاملهم مع الآخرين ، ولم يلحظ عليهم أحدٌ كلّ هذه المدة تلاعباً فى الكلام ، أو تحايلاً فى التصرف ، أو تهافتاً فى النقل . فهل تتصور ـ بربک ـ أنّ بإمكان أكذوبة ان تعيش سبعين عاماً ، ويمارسها أربعة على سبيل الترتيب كلهم يتفقون عليها ، ويظلون يتعاملون على أساسها وكأنها قضية يعيشونها بأنفسهم ويرونها بأعينهم دون ان يبدر منهم أى شيء يثير الشک ، ودون ان يكون بين الأربعة علاقة خاصة متميزة تتيح لهم نحواً من التواطئ ، ويكسبون من خلال ما يتصف به سلوكهم من واقعية ثقة الجميع ، وإيمانهم بواقعية القضية التى يدّعون أنهم يحسونها ويعيشون معها ؟!

لقد قيل قديماً : إنّ حبل الكذب قصير ، ومنطق الحياة يثبت أيضاً أنّ من

(١) إشارة إلى النواب الأربعة المذكورين .

(٢) وهو ما اصطلح عليه (بالمرجعية الدينية) ، ويلاحظ هنا الصفات التى يرى الإمام الشهيد لزوم توفرها فى المرجعية .

المستحيل عملياً بحساب الاحتمالات أن تعيش أكذوبة بهذا الشكل ، وكلّ هذه المدة ، وضمن كلّ تلك العلاقات والأخذ والعطاء ، ثمّ تكسب ثقة جميع من حولها .

وهكذا نعرف أنّ ظاهرة الغيبة الصغرى يمكن ان تعتبر بمثابة تجربة علمية لإثبات ما لها من واقع موضوعى ، والتسليم بالإمام القائد بولادته (١) وحياته وغيبته ، وإعلانه العام عن الغيبة الكبرى التى استتر بموجبها عن المسرح ولم يكشف نفسه لأحد (٢) .

---

(١) إنّ اتصال الامام القائد المهدى بقواعد الشيعية عن طريق نوابه ووكلائه ، أو بأساليب أخرى متنوعة واقع تاريخى موضوعى ليس من سبيل إلى انكاره ، كما فى السفارة ، فضلاً عن الدلائل الأخرى الكثيرة المستندة الى اخبار من يجب تصديقه ، ثم هو مقتضى الاحاديث المتواترة ، كحديث : «من مات ولم يعرف امام زمانه مات ميتةً جاهلية» وغير ذلک . إنّ كلّ ذلک مجموعاً ـ وهو محل اتفاق اكثر طوائف الملة الإسلامية ـ يدحض وبشكل قاطع ما يثيره المتشككون حول وجود الإمام واستمرار حياته المباركة الشريفة ، راجع : الغيبة الصغرى | السيد محمد الصدر : ص ٥٦٦ . وراجع ما أثبتناه فى المقدمة : ص ١٥ وما بعدها .

(٢) ورد التوقيع الشريف عن الإمام القائد المهدى عليه السلام بعدم إمكان رؤيته بشكل صريح بعد وقوع الغيبة الكبرى ، وهذا محل اتفاق علماء الإمامية . وراجع مناقشة المسألة فى : الغيبة الصغرى | السيد محمد الصدر : ص ٦٣٩ وما بعدها .

ص:١١٣

(المبحث السادس)

لماذا لم يظهر القائد إذن ؟

ص:١١٤

لماذا لم يظهر القائد إذن طيلة هذه المدة ؟ وإذا كان قد أعدّ نفسه للعمل الاجتماعى ، فما الذى منعه من الظهور على المسرح فى فترة الغيبة الصغرى او فى اعقابها بدلاً عن تحويلها إلى غيبة كبرى ، حيث كانت ظروف العمل الاجتماعى والتغييرى وقتئذٍ أبسط وأيسر ، وكانت صلته الفعلية بالناس من خلال تنظيمات الغيبة الصغرى تتيح له أن يجمع صفوفه ويبدأ عمله بداية قوية ، ولم تكن القوى الحاكمة من حوله قد بلغت الدرجة الهائلة من القدرة والقوة التى بلغتها الإنسانية بعد ذلک من خلال التطور العلمى والصناعى ؟

والجواب : أنّ كلّ عملية تغيير اجتماعى يرتبط نجاحها بشروط وظروف موضوعية لا يتأتى لها أن تحقق هدفها إلاّ عندما تتوفر تلک الشروط والظروف .

وتتميز عمليات التغيير الاجتماعى التى تفجرها السماء على الأرض بأنها لا ترتبط فى جانبها الرسالى بالظروف الموضوعية (١) ؛ لانّ الرسالة التى تعتمدها

---

(١) على الرغم من الأهمية التى يعطها الشهيد الصدر رضى الله عنه هنا للظروف الموضوعية ، ودور نضوجها أو إنضاجها فى نجاح الثورات ـ وهذا فهم عميق لأثر العامل الاجتماعى والنفسى ـ إلاّ أنّ الشهيد الصدر رضى الله عنه يعرض نظرية جديدة فى فهم عملية التغيير الاجتماعى الذى تحدثه السماء

عملية التغيير هنا ربانية ، ومن صنع السماء لا من صنع الظروف الموضوعية ، ولكنها فى جانبها التنفيذى تعتمد الظروف الموضوعية ويرتبط نجاحها وتوقيتها بتلک الظروف . ومن أجل ذلک انتظرت السماء مرور خمسة قرون من الجاهلية حتى أنزلت آخر رسالاتها على يدّ النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ؛ لأنّ الارتباط بالظروف الموضوعية للتنفيذ كان يفرض تأخرها على الرغم من حاجة العالم إليها منذ فترة طويلة قبل ذلک .

والظروف الموضوعية التى لها أثر فى الجانب التنفيذى من عملية التغيير ، منها ما يشكّل المناخ المناسب والجوّ العام للتغيير المستهدف ، ومنها ما يشكّل بعض التفاصيل التى تتطلبها حركة التغيير من خلال منعطفاتها التفصيلية .

فبالنسبة إلى عملية التغيير التى قادها ـ مثلاً ـ لينين فى روسيا بنجاح ، كانت ترتبط بعامل من قبيل قيام الحرب العالمية الأولى وتضعضع القيصرية ، وهذا ما يساهم فى إيجاد المناخ المناسب لعملية التغيير ، وكانت ترتبط بعوامل أخرى جزئية ومحدودة من قبيل سلامة لينين مثلاً فى سفره الذى تسلل فيه إلى داخل روسيا وقاد الثورة ، إذ لو كان قد اتفق له أى حادث يعيقه لكان من المحتمل أن تفقد الثورة بذلک قدرتها على الظهور السريع على المسرح .

وقد جرت سنة الله تعالى التى لا تجد لها تحويلاً فى عمليات التغيير الربانى على التقيد من الناحية التنفيذية بالظروف الموضوعية التى تحقق المناخ المناسب والجو العام لإنجاح عملية التغيير ، ومن هنا لم يأت الاسلام إلاّ بعد فترة من الرسل وفراغ مرير استمر قروناً من الزمن .

من خلال الرسالات السماوية ، فهى فى جانبها الرسالى ترتبط بقانونها الخاص ، ولكن فى جانبها التنفيذى تعتمد الظروف الموضوعية وترتبط بها توقيتاً ونجاحاً ، وأعنى بالظروف الموضوعية : الحالة السياسية والحالة الاجتماعية للأمة والواقع الدولى المعاصر ، ومدى قدرة الأمة فى إمكاناتها الذاتية واستعدادها النفسى .

فعلى الرغم من قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على تذليل كل العقبات والصعاب فى وجه الرسالة الربانية وخلق المناخ المناسب لها خلقاً بالإعجاز ، لم يشأ أن يستعمل هذا الأسلوب ؛ لأنّ الامتحان والابتلاء والمعاناة التى من خلالها يتكامل الانسان يفرض على العمل التغييرى الربانى ان يكون طبيعياً وموضوعياً من هذه الناحية ، وهذا لا يمنع من تدخل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أحياناً فيما يخصّ بعض التفاصيل التى لا تكوّن المناخ المناسب وإنما قد يتطلبها أحياناً التحرک ضمن ذلک المناخ المناسب ، ومن ذلک الإمدادات والعنايات الغيبية التى يمنحها الله تعالى لأوليائه فى لحظات حرجة فيحمى بها الرسالة ، وإذا بنار نمرود تصبح برداً وسلاماً على إبراهم (١) ، وإذا بيد اليهودى الغادر التى ارتفعت بالسيف على رأس النبى صلى الله عليه وآله وسلم تُشلّ وتفقد قدرتها على الحركة (٢) ، وإذا بعاصفة قوية تجتاح مخيمات الكفار والمشركين الذين احدقوا بالمدينة فى يوم الخندق وتبعث فى نفوسهم الرعب (٣) ، إلاّ أنّ هذا كله لا يعدو التفاصيل وتقديم العون فى لحظات حاسمة بعد أن كان الجو المناسب ، والمناخ الملائم لعملية التغيير على العموم قد تكوّن بالصورة الطبيعية ووفقاً للظروف الموضوعية .

وعلى هذا الضوء ندرس موقف الإمام المهدى عليه السلام لنجد انّ عملية التغيير التى أُعدّ لها ترتبط من الناحية التنفيذية كأى عملية تغيير اجتماعى أخرى بظروف موضوعية تُساهم فى توفير المناخ الملائم لها ، ومن هنا كان من الطبيعى أن توقّت وفقاً لذلک . ومن المعلوم أنّ المهدى لم يكن قد أعدّ نفسه لعمل اجتماعى محدود ،

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا ءَالِهَتَكُم إِن كُنتُمْ فَعِلِينَ * قُلْنَا يَنَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيداً فَجَعَلنَهُمُ الأَخسَرِينَ) الأنبياء : ٦٨ ـ ٧٠ .

(٢) راجع الرواية فى تفسير ابن كثير ٢ : ٣٣ ، وراجع : البحار | المجلسى ١٨ : ٤٧ و ٥٢ و ٦٠ ، ٧٥ باب معجزات النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

(٣) تاريخ الطبرى ٢ : ٢٤٤ حوادث السنة الخامسة من الهجرة .

ولا لعملية تغيير تقتصر على هذا الجزء من العالم أو ذاک ؛ لأنّ رسالته التى أُدّخر لها من قبل الله ـ سبحانه وتعالى ـ هى تغيير العالم تغييراً شاملاً ، وإخراج البشرية كل البشرية من ظلمات الجور إلى نور العدل (١) ، وعملية التغيير الكبرى هذه لا يكفى فى ممارستها مجرد وصول الرسالة والقائد الصالح وإلاّ لتمت شروطها فى عصر النبوة بالذات ، وإنما تتطلب مناخاً عالمياً مناسباً ، وجوّاً عاماً مساعداً ، ويحقق الظروف الموضوعية المطلوبة لعملية التغيير العالمية .

فمن الناحية البشرية يعتبر شعور إنسان الحضارة بالنفاد عاملاً أساسياً فى خلق ذلک المناخ المناسب لتقبّل رسالة العدل اجديدة ، وهذا الشعور بالنفاد يتكون ويترسخ من خلال التجارب الحضارية المتنوعة التى يخرج منها إنسان الحضارة مثقلاً بسلبيات ما بنى ، مدركاً حاجته إلى العون ن متلفّتاً بفطرته إلى الغيب أو إلى المجهول .

ومن الناحية المادية يمكن أن تكون شروط الحياة المادية الحديثة أقدر من شروط الحياة القديمة فى عصر كعصر الغيبة الصغرى على إنجاز الرسالة على صعيد العالم كله ، وذلک بما تحققه من تقريب المسافات ، والقدرة الكبيرة على التفاعل بين شعوب الأرض ، وتوفير الأدوات والوسائل التى يحتاجها جهاز مركزى لممارسة توعية لشعوب العالم وتثقيفها على أساس الرسالة الجديدة .

وأما ما أشير إليه فى السؤال من تنامى القوى والأداة العسكرية التى واجهها القائد فى اليوم الموعود كلّا أجّل ظهوره ، فهذا صحيح ، ولكن ماذا ينفح نمو الشكل

---

(١) كما هو نصّ الحديث النبوى الشريف : «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يومٌ لطوّل الله ذلک اليوم حتى يبعث رجلاً منى أو من أهل بيتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» .

راجع : التاج الجامع للاصول | منصور على ناصف ٥ : ٣٦٠ الهامش ، قال : رواه أبو داود والترمذى .

المادى للقوة مع الهزيمة النفسية من الداخل ، وانهيار البناء الروحى للإنسان الذى يملک كلّ تلک القوى والأدوات ؟ وكم من مرّة فى التاريخ انهار بناءٌ حضارى شامخ بأول لمسة غازية ؛ لأنه كان منهاراً قبل ذلک ، وفاقداً الثقة بوجوده والقناعة بكيانه والاطمئنان إلى واقعه (١) .

---

(١) لقد شاهدنا فى بداية التسعينات المصداق لهذه المقولة التى أطلقها الشهيد الصدر رضى الله عنه استناداً إلى خبرته العميقة بالمجتمع البشرى ، فقد انهار الاتحاد السوفيتى وهو أحد القطبين اللذين كانا يهيمنان على العالم انهياراً سريعاً جداً ، وبصورة أذهلت الجميع .

ص:١٢١

(المبحث السابع)

وهل للفرد كلّ هذا الدور ؟!

ص:١٢٢

ص:١٢٣

ونأتى إلى سؤال آخر فى تسلسل الأسئلة المتقدمة ، وهو السؤال الذى يقول : هل للفرد مهما كان عظيماً القدرة على إنجاز هذا الدور العظيم ؟ وهل الفرد العظيم إلاّ ذلک الإنسان الذى ترشحه الظروف ليكون واجهةً لها فى تحقيق حركتها ؟

والفكرة فى هذا السؤال ترتبط بوجهة نظر معينة للتاريخ تفسره على أساس أنّ الإنسان عامل ثانوى (١) فيه ، والقوى الموضوعية المحيطة به هى العامل الأساسى ، وفى إطار ذلک لن يكون الفرد فى أفضل الأحوال إلاّ التعبير الذكى عن اتجاه هذا العامل الأساسى .

ونحن قد أوضحنا فى مواضع أخر من كتبنا المطبوعة (٢) أنّ التاريخ يحتوى على قطبين : أحدهما الإنسان ، والآخر القوى المادية المحيطة به . وكما تؤثر القوى المادية وظروف الإنتاج والطبيعية فى الإنسان ، يؤثر الإنسان ايضاً فيما حوله من قوى وظروف ، ولا يوجد مبرر لافتراض العكس ، فالإنسان والمادة يتفاعلان

---

(١) إشارة إلى نظرية المادية التاريخية ، أى إلى التفسير الماركسى للتاريخ ، راجع : اقتصادنا ١ : ١٩ ، وفيه تحليل علمى ومناقشة فلسفية عميقة بقلم الإمام الشهيد الصدر رضى الله عنه .

(٢) إشارة الى كتاب (فلسفتنا) ، وإلى مقدمة كتاب (اقتصادنا) .

على مرّ الزمن ، وفى هذا الإطار بإمكان الفرد أن يكون أكبر من ببغاء فى تيار التاريخ ، وبخاصة حين ندخل فى الحساب عامل الصلة بين هذا الفرد والسماء (١) . فإن هذه الصلة تدخل حنيئذٍ كقوة موجّهة لحركة التاريخ . وهذا ما تحقق فى تاريخ النبوّات ، وفى تاريخ النبوّة الخاتمة بوجه خاص ، فإنّ النبىّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بحكم صلته الرسالية بالسماء تسلّم بنفسه زمام الحركة التاريخية ، وأنشأ مدّاً حضارياً لم يكن بإمكان الظروف الموضوعية التى كانت تحيط به أن تتمخض عنه بحال من الأحوال ، كما أوضحنا ذلک فى المقدمة الثانية للفتاوى الواضحة (٢) .

وما أمكن أن يقع على يد الرسول الاعظم يمكن ان يقع على يد القائد المنتظر من أهل بيته الذى بشّر (٣) به ونوّه عن دوره العظيم .

(١) راجع : كتاب الأبطال (البطل فى صورة نبى) | توماس كارليل | ترجمة الدكتور السباعى ، سلسلة الألف كتاب ـ مصر .

(٢) راجع المقدمة الثانية فى الفتاوى الواضحة : ص ٦٣ ، وفيها توضيح وتفصيل لهذه المسألة .

(٣) التاج الجامع للأصول ٥ : ٣٤٣ ، عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم : «المَهْدِى منّى أجلَى اَلجَبهَة أقنى الأنفَ يَملأ الأرضَ قِسْطاً وَعَد كما مُلِئت ظلماً وجَوراً» .

(المبحث الثامن)

ما هى طريقة

التغيير فى اليوم الموعود ؟

ص:١٢٧

ونصل فى النهاية إلى السؤال الأخير من الأسئلة التى عرضناها ، وهو السؤال عن الطريقة التى يمكن ان نتصور من خلالها ما سيتمّ على يد ذلک الفرد من انتصار حاسم للعدل ، وقضاء على كيانات الظلم المواجهة له .

والجواب المحدد عن هذا السؤال يرتبط بمعرفة الوقت والمرحلة التى يقدّر للإمام المهدى عليه السلام ان يظهر فيها على المسرح ، وإمكان افتراض ما تتميز به تلک المرحلة من خصائص وملابسات لكى ترسم فى ضوء ذلک الصورة التى قد تتخذها عملية التغيير ، والمسار الذى قد تتحرک ضمنه ، وما دمنا نجهل المرحلة ولا نعرف شيئاً عن ملابساتها وظروفها فلا يمكن التنبؤ العلمى بما سيقع فى اليوم الموعود ، وإن امكنت الافتراضات والتصورات التى تقوم فى الغالب على أساس ذهنى لا على أسس واقعية عينية .

وهناک افتراض أساسى واحد بالإمكان قبوله على ضوء الأحاديث التى تحدثت عنه (١) والتجارب التى لوحظت لعمليات التغيير الكبرى فى التاريخ ، وهو

---

(١) إشارة إلى علامات الظهور أو الملابسات والاحداث والوقائع التى تسبق ظهوره المبارک أو ترافق ظهوره كما صوّرتها الروايات ووردت بها الآثار الصحيحة ، وقد بسطت تفصيلاً فى

ص:١٢٨

افتراض ظهور المهدى عليه السلام فى أعقاب فراغ كبير يحدث نتيجة نكسة وأزمة حضارية خانقة (١) وذلک الفراغ يتيح المجال للرسالة الجديدة أن تمتدّ ، وهذه النكسة تهيّء الجو النفسى لقبولها ، وليست هذه النكسة مجرد محادثة تقع صدفة فى تاريخ الحضارة الإنسانية ، وإنما هى نتيجة طبيعية لتناقضات التاريخ المنقطع عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ التى لا تجد لها فى

نهاية المطاف حلاً حاسماً فتشتعل النار التى لا تبقى ولا تذر ، ويبرز النور فى تلك اللحظة ؛ ليطفئ النار ويقيم على الأرض عدل السماء .

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين . وقد وقع الابتداء فى كتابة هذه الوريقات فى اليوم الثالث عشر من جمادى الثانية سنة ١٣٩٧ هـ ، ووقع الفراغ منها عصر اليوم السابع عشر من الشهر نفسه .

والله ولى التوفيق . محمد باقر الصدر ـ النجف الأشرف

تمّ الفراغ من تحقيق هذا الكتاب فى شهر رجب المرجب من سنة ١٤١٦ هـ وذلک فى قم المقدسة . الدكتور عبد الجبار شرارة

(عصر الظهور) للسيد محمد الصدر . وراجع : الإرشاد | الشيخ المفيد : ص ٣٦٥ وما بعدها وراجع أيضاً : الإشاعة لأشراط الساعة | محمد بن رسول الحسينى البرزنجى .

(١) وفيه إشارة إلى ما يمكن ان تنجرّ إليه الإنسانية من أزمة حضارية بسبب التنافسات والصراعات بين الحضارات المادية والكيانات السياسية ، وفشلها فى تحقيق الأمن والاستقرار والسعاده للإنسان ، ولقد بدأت بوادر مثل هذا الفراغ تظهر وتتسع شيئاً فشيئاً فى عصرنا الراهن فى شرق الأرض وغربها ، وكلّ متنبع للأخبار والتقارير الصحفية والتحقيقات الخبرية يعرف ذلک جيداً . وما اليوم الموعود ببعيد .

مصادر التحقيق

ص:۱۳۰

ص:۱۳۱

۱ ـ الاحتجاج

أبو منصور أحمد بن على بن أبى طالب الطبرسى ، من علماء القرن السادس ، تحقيق : الشيخ إبراهيم البهادرى والشيخ محمد هادى بِهْ ، بإشراف العلامة الشيخ جعفر السبحانى ، نشر أسوة ، التابعة لمنظمة الأوقاف والشؤون الخيرية ، الطبعة الأولى ۱۴۱۳ هـ .

۲ ـ الإرشاد

الشيخ محمد بن النعمان المفيد (ت | ۴۱۳ هـ) ، طبعة طهران | ۱۳۷۷ هـ .

۳ ـ الاصول العامة للفقه المقارن

العلامة محمد تقى الحكيم ، الطبعة الثانية | مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ بيروت ۱۹۷۹ م .

۴ ـ أصول الكافى

الشيخ محمد بن يعقوب الكلينى (ت | ۳۲۹ هـ) ، نشر المكتبة الإسلامية ـ طهران ۱۳۸۸ هـ .

۵ ـ الإشاعة لأشراط الساعة

السيد الشريف محمد بن رسول الحسينى البرزنجى ثم المدنى (ت | ١١٠٣ هـ) ، الطبعة الأولى ، نشر عبد الحميد أحمد حنفى ـ القاهرة ١٣٧٠ هـ ، شارع المشهد الحسينى .

---

٦ ـ اقتصادنا

الشهيد محمد باقر الصدر رضى الله عنه ، طبعة دار الفكر ـ بيروت .

٧ ـ بحار الأنوار

العلامة الشيخ محمد باقر المجلسى (ت | ١١١١ هـ) ، طبع دار الكتب الإسلامية ـ طهران .

٨ ـ الباب الحادى عشر وشروحه

العلامة أبو منصور حسن بن يوسف الحلى (ت | ٧٢٦ هـ) ، تحقيق : الدكتور مهدى محقق ، نشر مؤسسة آستانه رضوى ١٣٦٨ هـ .

٩ ـ التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول

الشيخ منصور على ناصف ، من علماء الأزهر الشريف ، نشر مكتبة پاموق استانبول | الطبعة الثالثة ، دار إحياء الكتب العربية ١٣٨١ هـ | ١٩٦١ م .

١٠ ـ تاريخ الأمم والملوک

الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى (ت | ٣١٠ هـ) ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٩٣٩ م .

١١ ـ تبصرة الولى فيمن رأى القائم المهدى

السيد هاشم البحرانى ، نشر مؤسسة المعارف الإسلامية ـ قم .

١٢ ـ التصوف والكرامات

الشيخ محمد جواد مغنية ، طبعة بيروت .

١٣ ـ تفسير القرآن العظيم

ابن كثير الدمشقى (ت | ٧٧٤ هـ) ، طبعة جديدة ، دار المعرفة ـ بيروت ١٩٩٤ م .

ص:١٣٣

١٤ ـ الجامعة الاسلامية (مجلة)

السنة الأولى | العدد الثالث | المدينة المنورة ١٩٦٩ م .

١٥ ـ الحاوى للفتاوى

جلال الدين السيوطى (ت | ٩١١ هـ) ، طبعة دار الكتاب العربى ـ بيروت .

١٦ ـ حق اليقين فى معرفة أصول الدين

السيد عبد الله شبر (ت | ١٢٤٢ هـ) ، مطبعة العرفان ـ صيدا ١٣٥٢ هـ .

١٧ ـ دفاع عن الكافى

ثامر هاشم العميدى ، نشر مركز الغدير للدراسات الإسلامية ـ قم ١٩٩٥ م .

١٨ ـ سنن ابن ماجة

الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى (ت | ٢٧٥ هـ) ، تحقيق محمد فؤاد بعد الباقى | دار الفكر ـ بيروت .

١٩ ـ السيرة البنوية

ابن هشام (ت | ٢١٨ هـ) ، تحقيق : عبد الحفيظ شلبى ـ مصطفى السقا ـ إبراهيم الأبيارى ، مبطعة مصطفى البابى الحلبى ـ مصر ١٣٥٥ هـ | ١٩٣٦ م .

٢٠ ـ صحيح مسلم

مسلم بن الحسين القشيرى (ت | ٢١٦ هـ) ، الطبعة الثانية ، دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ١٩٧٨ م .

٢١ ـ صحيح البخارى

أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى (ت | ٢٥٦ هـ) ، نشر مؤسسة التاريخ العربى ـ بيروت .

---

٢٢ ـ صحيح سنن المصطفى

ابو داود سليمان بن الأشعث السجستانى (ت | ٢٧٥ هـ) ، نشر دار الكتاب العربى ـ بيروت .

٢٣ ـ الصواعق المحرقة

ابن حجر الهيتمى (ت | ٩٧٤ هـ) ، الطبعة الأولى | المطبعة الميمنية ـ مصر ١٣١٢ هـ .

٢٤ ـ تاريخ الغيبة الصغرى

محمد الصدر ، نشر دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت .

٢٥ ـ غاية المأمول شرح التاج الجامع للأصول

الشيخ منصور على ناصف ، المطبوع بهامش التاج الجامع للأصول .

٢٦ ـ الفتاوى الواضحة

الشهيد الإمام محمد باقر الصدر ، نشر دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت .

٢٧ ـ فلسفتنا

الشهيد الإمام محمد باقر الصدر ، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٠ م .

٢٨ ـ الفصول المهمة

ابن الصباغ المالكى (ت | ٨٥٥ هـ) ، مطبعة العدل ـ النجف الاشرف .

٢٩ ـ الفصول المهمة فى تأليف الأمة

العلامة السيد عبد الحسين شرف الدين ، نشر مؤسسة البعثة ـ طهران .

٣٠ ـ المستدرک على الصحيحين

أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى (ت | ٤٠٥ هـ) ، دار الفكر ـ بيروت ١٣٩٨ هـ .

---

٣١ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل

دار صادر ـ بيروت .

٣٢ ـ مع الأنبياء

عفيف عبد الفتاح طبارة ، نشر مكتبة الشريف الرضى ـ قم | الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ .

٣٣ ـ مقاتل الطالبيّين

أبو الفرج على بن الحسين بن محمد الاصفهانى (ت | ٣٥٦ هـ) ، وينتهى نسبه إلى مروان بن الحكم بن أبى العاص .

٣٤ ـ الملل والنحل

أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (ت | ٥٤٨ هـ) ، تخريج محمد ابن فتح الله بدران ، مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة .

٣٥ ـ المهدى الموعود المنتظر عند علماء أهل السنة والإمامية

الشيخ نجم الدين جعفر بن محمد العسكرى ، نشر مؤسسة الإمام المهدى ـ قم ١۴٠٢ هـ .

٣۶ ـ موسوعة الإمام المهدى

نشر مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ أصفهان ، مطبعة الخيام ـ قم ١۴٠١ هـ .

٣٧ ـ معجم أحاديث الإمام المهدى

تأليف ونشر مؤسسة المعارف الاسلامية ـ قم | الطبعة الأولى ١۴١١ هـ ، بإشراف الشيخ على الكورانى .

٣٨ ـ ينابيع المودة

الشيخ سليمان بن إبراهيم القندوزى الحنفى | مؤسسة الأعلمى ـ بيروت ، أفست على الطبعة الأولى فى استانبول .